



جمهورية تركيا

جامعة تشانكيري كارا تكين

معهد العلوم الاجتماعية

العلوم الإسلامية الأساسية

قسم اللغة العربية

القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني

في الدراسات النقدية

معد الرسالة

عبد القادر حميد نعمة الجنابي

أطروحة ماجستير

د. هدايات زيرتورك

تشانكيري - 2023

"جمهورية تركيا"

جامعة "تشانكري كارا تكين"

معهد العلوم الاجتماعية

العلوم الإسلامية الأساسية

قسم اللغة العربية

القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني

في الدراسات النقدية

معد الأطروحة

عبد القادر حميد نعمة

أطروحة ماجستير

د. هدايات زيرتورك

تشانكري – 2023

فهرس المحتويات

II	فهرس المحتويات
III	بيان أخلاقيات البحث العلمي
IV	المقدمة
VI	بيان المسألة:
X	هيكلية البحث:
XIV	ÖZET
XIV	ABSTRACT
1	التمهيد
21	1. الفصل الأول: القاضي الفاضل
21	1.1. المبحث الأول: شعره في النقد الحديث
22	1.1.1. المطلب الأول: آراء النقاد القدامه في موضوعه الشعري
31	1.1.2. المطلب الثاني: آراء النقاد في أسلوبه وبنائه الفني
36	2،1. المبحث الثاني: شعره في النقد الحديث
36	1،2،1. المطلب الأول: آراء النقاد المحدثين في موضوعه الشعري
47	2.1.2. المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني
60	2. الفصل الثاني: القاضي الفاضل ناثرًا

60	1,2.المبحث الاول: نشره في النقد القديم.....
60	1,1,2.المطلب الأول: آراء النقاد القدامى في مضمونه النثري الفني.....
81	2,1,2.المطلب الثاني: آراء النقاد في اسلوبه وبنائه الفني في نشره الفني.....
85	2,2.المبحث الثاني: نشره في النقد الحديث.....
85	1,2,2.المطلب الاول : آراء النقاد المحدثين في موضوعه النثري الفني.....
88	3.الفصل الثالث: القاضي الفاضل ناقدا.....
90	1,3.المبحث الأول: آراؤه النقدية في النشر.....
93	1,1,3.المطلب الأول: آراء النقدية في النشر القديم.....
95	2,1,3.المطلب الثاني: آراء النقدية في النشر الحديث.....
98	2,3.المبحث الثاني: آراؤه النقدية في الشعر.....
98	1,2,3.المطلب الأول: آراء النقدية في الشعر القديم.....
103	2,2,3.المطلب الثاني: آراء النقدية في الشعر الحديث.....
107	خاتمة.....
108	نتائج وتوصيات.....
109	فهرس المصادر والمراجع.....
121	KİŞİSEL BİLGİLER.....

بيان أخلاقيات البحث العلمي

أصرح بأني قد التزمت بعناية بالأخلاقيات العلمية والقواعد الأكاديمية أثناء إعدادي لأطروحة الماجستير المعنونة (القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني في الدراسات النقدية) وذلك بدءًا من مرحلة تقديم الاقتراح إلى أن انتهيت من هذه الدراسة، وأن المعلومات المذكورة في الأطروحة حصلت عليها ضمن إطار الأخلاقيات والتقاليد العلمية، وأني قمت بالذكر والإشارة إلى جميع المصادر والمراجع التي اقتبست منها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر في هذه الدراسة التي أعدتها وفقًا لقواعد كتابة الأطروحة، وأصرح بأن جميع المصادر والمراجع التي لجأت إليها هي تلك الموضحة في قسم المصادر والمراجع.

202... \... \....

TEZ KABUL VE ONAY
ÇANKIRI KARATEKİN ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

Abulqader Hameed Neamah AL-JANABI tarafından hazırlanan *Bir Edebiyatçı Olarak El-Kâdı El-Fâdı Abdurrahim el-Beysânî –Edebi Analiz-*, başlıklı bu çalışma 08.06..2023 tarihinde yapılan tez savunma sınavı sonucunda *oybirliği* ile başarılı bulunarak jürimiz tarafından *Temel İslam Bilimleri Anabilim Dalı*’nda Yüksek Lisans tezi olarak kabul edilmiştir.

TEZ JÜRİSİ ÜYELERİ (Unvanı, Adı ve Soyadı)

Danışman : Dr. Öğr. Üyesi Hidayet ZERTÜRK

İmza:.....

Üye :Dr. Öğr. Üyesi Kutaiba FARHAT

İmza.....

Üye : Dr. Öğr. Üyesi Alaaddin KIRAZ

İmza.....

ONAY

Bu Tez, Çankırı Karatekin Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Yönetim Kurulunun 23.05.2023 tarih ve 2023/24-12-A-(5) sayılı oturumunda belirlenen jüri tarafından kabul edilmiştir.

Prof. Dr. Coşkun POLAT

Enstitü Müdürü

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي محمد المصطفى ثم، أما بعد:

إن الحديث عن عصر صلاح الدين يتسع لكثير من المجالات السياسية والعسكرية والثقافية ، والحديث عن عصر صلاح الدين يجرنا إلى الحديث على شخصية فرضت نفسها في هذا العصر المليء بالحروب الخاصة بالمسلمين ألا وهي شخصية القاضي الفاضل التي تميزت بالكثير من الإبداع خاصة في الجانب الأدبي، والتي برزت في عصر صلاح الدين حتى أصبح كاتب الديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين؛ حيث لاقت أعماله الأدبية سواء على مستوى الشعر أو النثر أو النقد الكثير من القبول لدى أدباء العصر وكتابه والذين قاموا بالحاكاة بأسلوب القاضي الفاضل لما فيه من جمال وإبداع بل ودربة بعالم الأدب جعلت له أسلوب خاص به يعرف به لدى دارسي الأدب وكل من يطالع الثقافة العربية سواء المحدثين والقدامى، سواء في مجال الشعر أو النثر أو النقد، يجعلنا نقول أن القاضي الفاضل لو صح التعبير هو صاحب مدرسة في مجال الأدب لها تلاميذ ولها أسلوبها الخاص التي فرضت نفسها في عصر صلاح الدين بين الشعراء والأدباء والنقاد، الأمر الذي فرض علينا بيان هذا الدور الذي قام به القاضي الفاضل في الحركة الثقافية في هذا العصر حتى نعرف من هو القاضي الفاضل؟ وما الدور الذي شارك فيه في الحياة الأدبية في هذا العصر؟ والسمات التي تميز بها، بل ونقده لكثير من الأعمال الأدبية للقدامى والمحدثين، بل وآراء النقاد المحدثين والقدامى في أعمال الأدبية ونقده هو لكثير من الأعمال الشعرية والنثرية في عصره بل وفي غير عصره من القدامى لبيان ما له وما عليه بشيء من التوضيح والموضوعية في مجال الأدب بشتى أنواعه وكان هذا على هذا النحو:

أولاً: بيان المسألة :

يشكل القاضي الفاضل بأدبه نثراً وشعراً ، وذلك في أواخر العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي ظاهرة أدبية فريدة ؛ حيث تولى ديوان الإنشاء في عصر صلاح الدين الأيوبي ، ومن هنا اهتم به الكتاب والمؤرخون بمتابعته في جميع النواحي تعبيراً عن موهبته الأدبية التي كانت ذائعة الصيت ، حيث أصبح كاتب ووزير صلاح الدين وكان كاتباً معروفاً وأديباً مشهوراً يشار إليه بالبنان ، بل وناقداً لكثير

من أهل الأدب والكتابة ، له أسلوبه المميز الذي يعرفه كل ما له علاقة بالثقافة العربية من قريب أو بعيد، سواء أكان ذلك على مستوى الشعر أو النثر، الأمر الذي يستوجب دراسة هذه الشخصية الأدبية والناقذة التي أثرت المجتمع نثرا وشعرا ونقدا في عصر صلاح الدين .

ثانيا: ضرورة البحث:

تبدو أهمية هذه الدراسة في التعرف على الدور الذي قام في القاضي الفاضل في الحركة الأدبية في عصر صلاح الدين والجهود التي بذلها لإثراء حركة الشعر والنثر بل والنقد في هذا العصر ، وكيف استفاد الأدباء والنقاد منه ، وبيان السمات الفنية التي تمتع بها القاضي الفاضل في شعره، وكذلك نثره وخاصة رسائل التي كانت لصلاح الدين ، بل وبيان لمساته النقدية للشعر والنثر وبيان خصائص هذا النقد وجوانب القوة والضعف فيه لبيان مدى تأثير النقد والأدباء منه .

ثالثا: أهداف البحث:

- 1- بيان دور القاضي الفاضل في الشعر ورأي النقاد في ذلك .
- 2 - بيان دور القاضي الفاضل في النثر ورأي النقاد في ذلك.
- 3 - بيان دور القاضي الفاضل النقدي.

رابعا : الدراسات السابقة:

1-علي نجم عيسى ، جهود القاضي الفاضل السياسية والعسكرية والثقافية في دولة صلاح الدين الأيوبي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 13 ، العدد 1، كانون الثاني ، 2006م .

تعرض هذه الدراسة للجهود المتعددة التي قام بها القاضي الفاضل، وذلك من الناحية العسكرية والثقافية والسياسية في دولة صلاح الدين، والتي لم تلتف للناحية الثقافية إلا بشيء هين، في حين قامت دراستنا الموسومة بـ (القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الدراسات النقدية) بدراسة مستفيضة بالناحية الثقافية بل الناحية الأدبية شعرا ونثرا ونقدا وذلك من خلال الأعمال الأدبية التي قام بها القاضي الفاضل.

2 - الحلبي، معالي عبد السلام، رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي (564 - 589 هـ / 1169 - 1193 م) : تحقيق ودراسة، غزة ، 2013م، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية (غزة)، كلية الآداب، فلسطين.

تقدم هذه الدراسة الجانب السياسي في رسائل القاضي الفاضل في عصر صلاح الدين ولم تتطرق إلى الجانب الأدبي في رسائل، في حين أن دراستنا الموسومة بـ (القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الدراسات النقدية) بدراسة مستفيضة بالناحية الثقافية بل الناحية الأدبية شعرا ونثرا ونقدا وذلك من خلال الأعمال الأدبية التي قام بها القاضي الفاضل.

3 - عقله، عصام مصطفى عبد الهادي، القاضي الفاضل " 526 - 596 هـ / 1132 - 1200 م. "وكتابه" المياومات في التأريخ ": دراسة في مصادر تأريخ صلاح الدين والدولة الأيوبية المبكرة، الجامعة الأردنية - عمادة البحث العلمي، مج10، ع1، الأردن، 2016.

تقوم هذه الدراسة بالتركيز على الجانب التاريخي ؛ حيث التأريخ للدولة الأيوبية وخاصة عهد صلاح الدين الأيوبي من خلال كتاب القاضي الفاضل المياومات دون التطرق إلى الجانب الثقافي الذي قامت به دراستنا الموسومة بـ (القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الدراسات النقدية) بدراسة مستفيضة بالناحية الثقافية بل الناحية الأدبية شعرا ونثرا ونقدا وذلك من خلال الأعمال الأدبية التي قام بها القاضي الفاضل.

4 - بهاء عبد الفتاح علي حسب الله، الرسالة السياسية عند القاضي الفاضل - دراسة تحليلية نقدية في نص منتخب، كلية الآداب - جامعة حلوان، المجلد 31، العدد 121 ، إبريل 2020، الصفحة 379-433.

تلقت هذه الدراسة إلى الجانب الرسالة السياسية لدى القاضي الفاضل من خلال دراسة تحليلية نقدية لأحد النصوص ، فباتت الرسالة سياسية أكثر ولم تتطرق كثيرا إلى الجانب الثقافي للقاضي الفاضل، الذي قامت به دراستنا الموسومة بـ (القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الدراسات النقدية) بدراسة مستفيضة بالناحية الثقافية بل الناحية الأدبية شعرا ونثرا ونقدا وذلك من خلال الأعمال الأدبية التي قام بها القاضي الفاضل.

خامسا : أسئلة البحث:

السؤال الرئيسي :

ما هو دور القاضي الفاضل في الحركة الأدبية في عصر صلاح الدين ؟

الأسئلة الفرعية:

1 – ما دور القاضي الفاضل في الشعر؟

2 – ما دور القاضي الفاضل في النثر ؟

3 – ما دور القاضي الفاضل في النقد ؟

سادسا : فرضيات الدراسة :

الفرضيات الأصلية :

كان للقاضي الفاضل دور كبير في إثراء الحركة الثقافية في عصر صلاح الدين على المستوى الشعري والنثري والنقدي.

الفرضيات الفرعية:

– كان القاضي الفاضل له أسلوبه المميز في الشعر الذي له سمات خاصة . بل وكل له المقدرة الفنية على نقد شعر غيره سواء الحديث أو القديم.

– لقد امتلك القاضي الفاضل زمام الأمور في فن الرسائل التي أرسل بها إلى صلاح الدين والتي تنوعت موضوعاتها وأساليبها الفنية بشكل يوحي بمقدرة أدبية كبيرة تستطيع الكتابة بل والنقد في هذا المجال.

سابعا : منهجية في البحث:

اعتمد الباحث على المنهج النقدي بالاستعانة بما أتيح من مصادر في هذا المجال.

ثامنا : هيكلية البحث:

الرسالة تشمل ثلاثة فصول وخاتمة وكل فصل يشمل مبحثين وفي كل مبحث مطلبين على هذا النحو :

مقدمة

التمهيد:

الفصل الأول : القاضي الفاضل شاعرًا

ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: شعره في النقد القديم ، وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقاد القدامى في موضوعه الشعري.

المبحث الثاني: شعره في النقد الحديث، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقاد المحدثين في موضوعه الشعري.

المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني.

الفصل الثاني: القاضي الفاضل ناثرًا، ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: نثره في النقد القديم ، وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقاد القدامى في موضوعه النثري.

المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني في نثره.

المبحث الثاني: شعره في النقد الحديث، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقاد المحدثين في موضوعه النثري.

المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني في نثره.

الفصل الثاني: القاضي الفاضل ناثرًا، ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: نشره في النقد القديم ، وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقاد القدماء في مضمونه النثري الفني .

المطلب الثاني: آراء النقاد في أسلوبه وبنائه الفني في نشره الفني:

المبحث الثاني: نشره في النقد الحديث، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقاد المحدثين في موضوعه النثري الفني.

المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني في نشره الفني.

الفصل الثالث: القاضي الفاضل ناقدًا

المبحث الأول: آراؤه النقدية في النشر ، وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقدية في النشر القديم.

المطلب الثاني: آراء النقدية في النشر الحديث.

المبحث الثاني: آراؤه النقدية في الشعر، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: آراء النقدية في الشعر القديم.

المطلب الثاني: آراء النقدية في الشعر الحديث.

خاتمة بالنتائج والمقترحات

المصادر والمراجع

الملخص

عنوان الأطروحة: القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني في الدراسات النقدية

مُعد الأطروحة: عبد القادر حميد نعمة

المشرف: د. هدايات زيرتورك

القسم: العلوم الإسلامية الأساسية

نوع الأطروحة: ماجستير

تاريخ الموافقة: 08.06.2023

لقد تناولت هذه الرسالة المعنونة بـ (القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الدراسات النقدية) الحديث عن عصر صلاح الدين يجرنا إلى الحديث عن شخصية فرضت نفسها في هذا العصر المليء بالحروب الخاصة بالمسلمين ألا وهي شخصية القاضي الفاضل التي تميزت بالكثير من الإبداع خاصة في الجانب الأدبي، والتي برزت في عصر صلاح الدين حتى أصبح كاتب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين؛ حيث لاقت أعماله الأدبية سواء على مستوى الشعر أو النثر أو النقد الكثير من القبول لدى أدباء العصر وكتابه والذين قاموا بالمحاكاة لأسلوب القاضي الفاضل لما فيه من جمال وإبداع، بل ودربة بعالم الأدب والنقد جعلت له أسلوب خاص به يعرف به لدى دارسي الأدب، وكل من يطالع الثقافة العربية سواء المحدثين والقدامى، سواء في مجال الشعر أو النثر أو النقد، مما يجعلنا أن نقول أن القاضي الفاضل لو صح التعبير هو صاحب مدرسة في مجال الأدب لها تلاميذها وأسلوبها الخاص التي فرضت نفسها في عصر صلاح الدين بين الشعراء والأدباء والنقاد، الأمر الذي فرض علينا بيان هذا الدور الذي قام به القاضي الفاضل في الحركة الثقافية في هذا العصر حتى نعرف من القاضي الفاضل؟ وما الدور الذي شارك فيه في الحياة الأدبية في هذا العصر؟ والسمات التي تميز بها وأسلوبه الأدبي والنقدي والجديد الذي أضافه للثقافة العربية في هذا الوقت ، بل ونقده لكثير من الأعمال الأدبية للقدامى والمحدثين وهنا تبين الرسالة أسلوبه الأدبي والنقدي والسمات التي تميز بها هذا الأسلوب الأدبي والنقدي بل ونماذج شعرية ونقدية من ديوانه وأيضاً من رسائله تبين طريقة أسلوبه الأدبي ونماذج من نقده للمحدثين والقدامى تبين طريقة نقده ، بل وعرضت الرسالة لكثير من آراء النقاد المحدثين والقدامى في أعماله الأدبية وأسلوبه

ونقده هو لكثير من الأعمال الشعرية والنثرية في عصره، بل وفي غير عصره من القدامى لبيان ما له وما عليه بشيء من التوضيح والموضوعية في مجال الأدب والنقد بشتى أنواعه ، ومن هنا تناولت الرسالة حياة القاضي الفاضل ومجهوده الأدبي على مستوى الشعر والنثر وعلى مستوى نقده سواء للقدامى والمحدثين بل وتناولت الرسالة أيضا نقد النقاد المحدثين والقدامى له في أعماله الشعرية والنثرية وفي نقده لكثير من الأعمال الأدبية للحدثى والقدامى .

الكلمات المفتاحية:



ÖZET

Tezin Başlığı	: Bir Edebiyatçı Olarak El-Kâdı El-Fâdı Abdurrahim el-Beysânî –Edebi Analiz-
Tezin Yazarı	: Abdulqader Hameed Neamah AL-JANABI
Danışman	: Dr.Öğr.Üyesi Hidayet ZERTÜRK
Anabilim Dalı	: Temel İslam Bilimleri Ana Bilim Dalı
Tezin Türü	: Yüksek Lisans
Kabul Tarihi	: 08.06.2023

Muhterem Hakim Abdülrahim el-Bisani) başlıklı bu tezimiz, Müslümanlar için savaşlarla dolu bu devirde kendini kabul ettiren bir şahsiyetten bahsetmemize neden olan Selahaddin devrinden bahsetmektedir. Selahaddin döneminde ortaya çıkan, Yararılış Dairesi'nin yazarı ve Selahaddin'in Nazırı olana kadar ortaya çıkan, özellikle edebî yönden çok fazla yaratıcılıkla karakterize edilen faziletli kadı kişiliği; Şiir, nesir ya da eleştiri düzeyindeki edebî eserleri, dönemin yazar ve yazarları arasında büyük bir kabul görmüş, güzelliği ve yaratıcılığı nedeniyle faziletli hakimin üslubunu taklit edenler ve hatta onu edebiyat ve eleştiri dünyasında yetiştirdi, bu da onu edebiyat bilginleri ve hem modern hem de eski Arap kültürünü okuyan herkes, ister şiir, nesir veya eleştiri alanında olsun, bize söyleten, kendine ait bir tarz haline getirdi. Kadı el-Fadıl, tabir doğru ise, Selahaddin devrinde şairler, yazarlar ve eleştirmenler arasında kendini empoze eden kendi üslubu ve talebeleri olan edebiyat alanında bir ekolün sahibidir. Erdemli yargıcın kim olduğunu anlayabilmemiz için, bu çağdaki kültürel harekette erdemli yargıcın oynadığı rolü açıklamalıyız? Bu dönemin edebî hayatında hangi rolü üstlenmiştir? Ve kendisini ve bu dönemde Arap kültürüne kattığı edebî, tenkitçi ve yeni üslûbunu ve hatta eski ve modern birçok edebî esere yönelik eleştirilerini diğerlerinden ayıran özellikleri.

Onun edebî yönteminin yöntemini ve modern ve eski eleştirisinin örneklerini gösterir, eleştiri yöntemini gösterir ve hatta edebî eserlerinde ve üslubunda modern ve eski eleştirmenlerin birçok görüşüne mektup sunar. Zamanında ve hatta kendi dönemindeki birçok manzum ve nesir eseri tenkidi eskilerden değil, sahip olduklarından ve sahip olduklarından biraz açıklık ve objektiflik ile edebiyat ve her türlü eleştiri alanında ve buradan hareketle mektup, erdemli yargıcın hayatını ve edebi çabalarını şiir ve nesir düzeyinde ve hem eski hem de modern eleştirisi düzeyinde ele aldı.

Anahtar Kelimeler : Yazar, Edebiyat, Arapça, Al-Bisani, Al-Rahim

ABSTRACT

Thesis Title: The virtuous judge Abd al-Rahim al-Bisani - a critical and analytical study
Author: Abdulqader Hameed Neamah AL-JANABI
Supervisor: Dr. Hidayet ZERTÜRK
Department: Department of Basic İslâm Sciences
Thesis Type: Master's Thesis
Date: 08.06.2023

This dissertation entitled (The Honorable Judge Abd al-Rahim al-Bisani) dealt with the talk about the era of Salah al-Din, which leads us to talk about a personality that imposed itself in this era full of wars for Muslims, namely, the personality of the virtuous judge who was characterized by a lot of creativity, especially in the literary aspect, which appeared in Saladin era until he became the writer of the Office of Creation and Minister of Salahuddin; Where his literary works, whether at the level of poetry, prose or criticism, met with a lot of acceptance among the writers and writers of the era, and those who imitated the style of the virtuous judge because of its beauty and creativity, and even trained him in the world of literature and criticism that made him a style of his own known to scholars of literature, and everyone who reads Arab culture, both modern and ancient, whether in the field of poetry, prose or criticism, which makes us say that al-Qadi al-Fadil, if the expression is correct, is the owner of a school in the field of literature that has its own students and its own style that imposed itself in the era of Saladin among poets, writers and critics, which imposed We have to explain this role played by the virtuous judge in the cultural movement in this era so that we know who the virtuous judge is? What role did he participate in in the literary life of this era? And the features that distinguished him and his literary, critical and new style that he added to Arab culture at this time, and even his criticism of many literary works For the ancients and the modernists, here the letter shows his literary and critical style and the features that distinguished this literary and critical style, and even poetic and critical models from his collection, and also from his letters showing the method of his literary style and examples of his criticism of the moderns and the ancients showing his method of criticism. His style and criticism is based on many poetic and prose works in his time, and even in other than his era, from the ancients to explain what he has and what he has with some clarification and objectivity in the field of literature and criticism of all kinds. For the ancients and the modernists, but the letter also dealt with the criticism of the modern and ancient critics of him in his poetic and prose works, and in his criticism of many literary works of the moderns and the ancients

Keywords: Author, Literature, Arabic, Al-Bisani, Al-Rahim

القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني

التمهيد:

إن العصر الفاطمي مليء بالأحداث الأدبية والتاريخية والدينية فما يهمنا في هذه الرسالة هي النشاط الأدبي في تلك الحقبة.

قبل الشروع في التعريف بالقاضي الفاضل فلا بد من الإشارة إلى الأحداث التاريخية المهمة في تلك الحقبة وما حدث فيها من اهتمامات بالشعر والشعراء والأدباء، والتحويلات والصراعات والانقسامات حول الحكم ومن هو القائم على إدارة الدولة الإسلامية آنذاك .

والدولة الفاطمية أخذت مكان مميز وفعال في تاريخ مصر الإسلامية، حيث صار المؤرخين والباحثين يكتبون عن تلك الحقبة لما فيها من مآثر وأيضاً لما فيها من صراعات سياسية.

فترة الحكم الفاطمي في مصر (969 – 1171م) ، والتي استمرت حواليتين من الزمان ، قد استولت على اهتمام واسع من الباحثين ، وهي تتطابق بصورة واضحة مع التطور الداخلي الخاص للبلاد في المرحلة التاريخية المعبر عنها¹ .

وفي سبب شرف هؤلاء الفاطميين أقوال كثيرة ، فمن الناس من نسبهم إلى فاطمة ١٢ بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . ومن الناس من نسبهم إلى الحسين بن محمد بن أحمد بن القداح، وكان أصل القداح من أبناء المجوس ، وهذا أشهر نسبهم عند أرباب التواريخ² .

- الحياة الأدبية :

يبدأ العصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي ارتقى فيه الأدب العربي عامة وازدهر الشعر والنثر ، فأخرج كبار شعراء العربية أمثال أبي الطيب المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي والصنوبري وأبي العلاء المعري من شعراء الشرق والشام ، كما أظهر من شعراء الغرب

¹ سيمينوفا، تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة ، 2001م . ص 19.

² محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس، أبو البركات، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ج 1 ص 187 .

ابن هانئ وغيره من شعراء الأندلس وفضلاً عن خرج في هذا القرن من كبار الكتاب أمثال أبي هلال الصابي ، وأبي حيان التوحيد ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمداني ، والخوارزمي ، ومن الأدباء والنقاد وعلماء العربية الكبار كالآمدي ، والقاضي الجرجاني ، وأبي هلال العسكري والحافتي .

وكان للشعر في القرنين الخامس والسادس دوره الكبير في الحياة الأدبية وإن نافسته الكتابة وحاولت أن تتقدم عليه، وتدفع به إلى مكانة متأخرة، ذلك أن الشعراء الكبار الذين كانوا يفرضون وجودهم على الرأي العام الأدبي، بإبداعهم المتفوق ومكانتهم الفنية قد قلوا بل ندر وجودهم، على غير الحال في القرون السابقة. ولهذا لم نجد اسماً بارزاً في هذين القرنين يستطيع أن يحتل المكانة التي احتلها المتنبي مثلاً في القرن الرابع ولا أبو تمام والبحري وابن الرومي في القرن الثالث اللهم إلا من كان علامة ظاهرة كأبي العلاء المعري .

ومن هنا كان الشعراء في هذين القرنين من الطبقة الوسطى في فهم الشعري ومكانتهم الإبداعية. كان ذلك لأسباب كثيرة. ومن وظهر في هذين القرنين طبقات من الشعراء غير المحترفين ، إذا صح هذا التعبير . لم يتكسبوا بالشعر، وإن غلب على معظم الشعراء التكسب، ومن بين غير المحترفين جماعة الكتاب نظموا الشعر إلى جانب الكتابة، وألحقوا هذا النظم بكتاباتهم فاختلط فيها النثر بالشعر وكانت ظاهرة هذين القرنين التي عمت من بعد واتبعها الكتاب في العصور التالية¹ .

وكانت الدولة الفاطمية من أعظم الدول التي عاشت في مصر أكثر من قرنين من الزمان ، وكان لها تاريخ حافل ، ولخلفائها في الحضارة الإسلامية أثر بعيد ؛ فهم الذين أسسوا القاهرة الشعرية ؛ فكانت قبة الإسلام ، وحاضرة الأنام ، وغرة جبين الزمان ، وأنشعوا الجامع الأزهر ؛ فكان منبعاً للعلوم الإسلامية ومنازة للمعارف والآداب على مر الزمان ، كما أقاموا دور الكتب والخزائن ، وجلبوا إليها الكتب والأسفار ورصدوا لها الأموال ، وأعدوا لطلاب المعرفة القوام والنساخ ، وهوت إليها أفئدة العلماء من شتى الجهات ، ينهلون العلم من أعذب مورد وأصفاه² .

¹ محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الفاطمي، الإسكندرية: منشأة المعارف، ص 9-10 .

² خطط المقرئ ج 2 ص 8.

وشجع الفاطميون الشعر والشعراء لأن خلفاءهم كانوا عرباً يتذوقون الأدب والشعر ويقولونه. وقد رويت أشعار لمعظمهم، كما قام على تشجيع الشعر والشعراء وزراء الفاطميين الكبار أمثال يعقوب بن كلس، والأفضل بن بدر الجمالي، والصالح طلائع بن رزيق، وجمع بلاط هؤلاء جماعة من الشعراء، إلى نوافذ الشعراء وتكاثرهم حول بلاط الخلفاء، وإلى مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة من القادة، والقضاة. وأجزل هؤلاء العطاء للشعراء. ورتبت الدولة لهم ديواناً جعلوا عليه قيمة. وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المديح ضرباً بها الشعراء لساحتهم، كما كان الخلفاء يعتبرونه كذلك. ولم تكن مناسبة من المناسبات سياسية أو اجتماعية أو عيداً من الأعياد السامية من الخدمة التي يتقدم¹، وكان من الشخصيات التي بزغ نجمها في هذا العصر في مجال الكتابة النثرية وأيضاً في مجال الشعر، هي شخصية القاضي الفاضل التي حظيت بشهرة كبيرة في مجال النثر وأيضاً الشعر فعلى التعرف على هذه الشخصية التي لاقت رواجاً كبيراً في هذه الفترة، وتأثر بها الكثير من الكتاب والشعراء في هذه الفترة، ويمكن التعرف على شخصية القاضي الفاضل من خلال هذه النقاط وعلى هذا النحو:

- اسمه:

لقد جاء اسم القاضي الفاضل في شكل أسماء متعددة، بل إلى جانب عدة ألقاب أطلقت عليه، وكانت أغلب هذه الألقاب قريبة الدلالة على اسمه وشخصيته و وضعه الأدبي والعلمي بل والقيادي في تلك الفترة الحاسمة، على هذا النحو:

فاسمه المولى الأجل القاضي الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن البيساني².

أو: هو المولى القاضي الأجل الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن البيساني³.

¹ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1993م، ص 9.

² عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تح: أحمد أمين وآخرون، القاهرة: د.د، 1951م، ص 35.

³ عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزبيق. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997م، ص 475.

أو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرّج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار المعروف بالقاضي الفاضل المقلب مجير الدين¹.

أو عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن الفرّج بن أحمد القاضي الفاضل محيي الدين أبو علي بن القاضي الأشرف اللخمي البيساني العسقلاني مولد².

والإجماع على أن اسمه : عبد الرحيم بن علي بن السعد اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل ، وزير من أئمة الكتاب ولد بعسقلاني بفلسطين ، وانتقل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة وتوفي فيها³ .

- نسبه:

ينتمي نسب القاضي الفاضل إلى قبيلة لخم وهي من القبائل العربية العريقة، فقد قدمت لخم وكنانة إلى بلاد الشام وانتشرت فيها فإذا استقرت لخم بفلسطين ، فإن كنانة قد استقرت في شرقي نهر الأردن، وهناك دلالة الاسم ما زالت ماثلة وهناك منطقة جغرافية في شمال الأردن متاخمة للجولان وشمال فلسطين ، هي لواء بني كنانة وقيل هذه التسمية لها علاقتها بقبلة كنانة العربية المشهورة⁴، أما قبيلة لخم فقد امتدت في فلسطين ما بين الرملة ومصر على الساحل الفلسطيني ومعظم سكان فلسطين يرتدون إلى قبيلة لخم⁵ .

- ألقابه :

لقد تعددت ألقاب القاضي الفاضل، وهي ألقاب ارتبطت به عن طريقين : العمل والنسبة ، فمثلا:

¹ أحمد بن محمد البرمكي الإربلي ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، 1969م ص 158.

² عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، د.م: فيصل عيسى البابي الحلبي، 1964م، ص 253 ، 254.

³ خير الدين الدمشقي الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، 1997م، ص 346.

⁴ محمود محسن فالح، عشائر شمالي الأردن، عمان: دار عمار ، 1990م ، ص 135.

⁵ مصطفى مراد الدباغ، موسوعة بلادنا فلسطين، د.م: دار الهدى، 2002م ، ص 400.

لقب البيساني : نسبة إلى بيسان الواقعة بغور الأردن من جهة فلسطين، وهي بلدة أبيه وأسرته مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين ، وقال ياقوت : إن الفاضل ذكر من علماء وأعيان بيسان¹ .

لقب العسقلاني: نسبة إلى عسقلان على الساحل الفلسطيني، وهي مولده وطفولته.

لقب المصري: نسبة إلى مصر التي قضى معظم حياته فيها، وبها توفي ودفن .

(هذا وأطلق المؤرخون على القاضي الفاضل لقبين يمثلان دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين، وهما :

- لقب محيي الدين : وهو محيي الدين لأنه ساعد صلاح الدين في القضاء على ، وإحياء السنة في مصر .

- لقب مجير الدين : وهو مجير الدين لوقوفه إلى جانب صلاح الدين في تحرير الأراضي المقدسة ، وإعادة تمها إلى ديار الإسلام.

وأخيرا لقب القاضي ؛ حيث لقب به لعمله في الإدارة المصرية ولدلالة خلقية أيضا)².

- مولده :

(ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ومات سنة ست وتسعين وخمسمائة، وولده أبو بكر أحمد القاضي الأشرف وزر للملك العادل أبي بكر فلما مات عرضت عليه الوزارة فلم يررض وأقبل على طلب الحديث وسماعه والتفقه والتدريس بمدرسة أبيه، وله كرم وافر³.

¹ ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار إحياء التراث، 1979م، 1/ 527.

² هادية دجاني شكيل، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990م، ص 25.

³ ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، دار الكتب المصرية ، 1950م، ج 3 ص 158؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6 ص 56؛ المقرئزي، المواعظ والاعتبار ، ج 2 ص 364 .

- حياته وعمله:

إن القاضي الفاضل عاش في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي وعمل القاضي الفاضل في مستهل حياته بالإدارة المصرية في الإسكندرية والقاهرة خلال الفترة الواقعة بين سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م وسنة 565هـ / 1169م؛ تدرج القاضي عبد الرحيم في مناصب عدة إلى أن حقق مقصده فأصبح وزيراً مرموقاً وصاحب ديوان الإنشاء في دولة صلاح الدين في سنة 567هـ / ١١٧١م. وبسبب مكانته المتميزة والرفعة التي وصل إليها فقد اهتم المؤرخون والكتاب بالإشارة إليه، ومتابعة حركاته وسكناته، ولما تناوله معاصروه من شعراء وعلماء بمختلف رذات الفعل من مدح أو هجاء، أو حتى بوصفه في قوالب تندرية أو جدية تعكس أكثر من جانب من شخصيته أو سيرته. وقد رأينا، في هذه المقدمة، أن ترسم صورة شاملة لهذه الشخصية الفذة التي شغلت عصرها قرابة نصف قرن¹.

وعاش القاضي الفاضل حياته منذ نعومة أظفاره مهتماً بالقرآن بالعلم والأدب وكان يذهب مع أبيه القاضي الأشرف بهاء الدين (546هـ)، وقد ثقفه تثقيف دينياً وأدبياً حتى احترف في ذلك، وكان بهاء الدين يتولى القضاء بعسقلان بعد القضاء بيسان، فكان يحضره معه إلى ديوان المكتبات ليتعلم فن الكتابة وخاصة ديوان الإنشاء لأهميته وارتباطه بالسلطة فكان والده يدفعه إلى المكانات المرتبطة بالوزارة ليحظى بالمكانة المرموقة ويتدرب من خلال مجالسته للعلماء والأدباء فكان الفاضل ممن يحضر هذه الدواوين، إلى أن أصبح كاتب ووزير صلاح الدين أنداك فكان يستشيريه فكان لا يصدر أمراً بدون الرجوع إليه ويأخذ رأيه ولقد شهد القاضي بدور القاضي الفاضل عبد الرحيم الإداري والفكري؛ حيث قال فيه مقولة شهيرة :

(لا تظنوا أني ملكة البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل)².

وكان القاضي الفاضل يأخذ ما يريد من سلطانه، وكان يكتب إلى سلطانه، ويشفع فيما يريد، كما يشفع الصّاحب إلى صاحبه، والصّديق إلى صديقه؛ وكان يسلم في كتبه التي يكتبها إلى السلطان على من أراد من أولاد السلطان أو إخوته¹.

¹ هادية دجاني، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، ص 25.

² الأعلام، الزركلي، ج 3 ص 346؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 6 ص 157.

حيث قال: (فأرسلني والدي، وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان، إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال ؛ فلما حضرت الديوان ووقفت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبتي، رحب بي وسهل، ثم قال لي: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات فقلت: ليس عندي شيء سوى أتي أحفظ القرآن الكريم، وكتاب الحماسة، فقال : في هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فلما ترددت إليه وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته)² .

ونقلت الروايات أن القاضي الأشرف والد القاضي الفاضل كان من أهل عسقلان، وكان ينوب في الحكم والنظر بمدينة بيسان، فدخل إلى مصر في زمان الظاهر بن الحافظ لكلام جرى بينه وبين والي الناحية من أجل كند كبير كان عند همله قيمة كبيرة، فداجي الوالي في حقه وأطلقه، فاستدعي الوالي إلى مصر لذلك وطولب بمال طائل، فاحتسب ببعض أمراء الدولة، وجعلوا الأقاويل في حق القاضي الأشرف، فاستدعي وصودر إلى أن لم يبق له شيء، ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضي الفاضل، فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة ليلة الأحد حادي عشر شهر ربيع الأول سنة (546 هـ).

ثم توجه القاضي الفاضل إلى ثغر الإسكندرية، وحضر عند ابن حديد قاضي البلد وناظره، فعرفه بوالده، فعرفه بالسمعة واستكتبه، وأخذ الفرنج عسقلان فحضر إخوته إليه. وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصر بخطه، وهي في غاية البلاغة، فحسده كتاب الإنشاء بما على فضله وخافوا من تقدمه عليهم، فسعوا إلى الظاهر به فقالوا: إنه قصر في المكاتب، وكان صاحب ديوان الإنشاء القاضي الأثير ابن بنان، فيحكى أنه دخل على الظاهر فقال له: تكتب إلى ابن حديد بقطع يد كاتبه، فتعصب له ابن بنان وقال: يا مولانا هذا الرجل ما منه تقصير، وإنما حسده هؤلاء الكتاب فسعوا به ليؤذيه مولانا، قال له الظاهر: فتكتب إلى ابن حديد ليرسله إلينا ويكتب لنا ثم استخدمه قاضي البلد³ .

¹ أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. بيروت: دار الكتب العلمية، 2010م، ج12 ص 150 .

² شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995م؛ قليقة، عبد العزيز، النقد الأدبي في العصر الأيوبي، القاهرة: دار الفكر العربي، 1991م ، ج1 ص 96 .

³ وفيات الأعيان، ج7 ص221 ؛ خليل بن أيك بن عبد الله الصفدي، الوافي بالوفيات، دمشق: المطبعة الهاشمية، 1981م ، ج18 ص203 .

وكانوا ثلاثة إخوة أحدهم خدم في مصر بالإسكندرية وبها مات وترك وراءه من الخواتيم صناديق ومن الحصر والقذور والخزف بيوتا مملوءة وكان إذا رأى خاتما وسمع به تسبب في تحصيله وأما الآخر فكان له هوى مفرط في تحصيل الكتب كان عنده ما يقارب مائتي ألف كتاب من كل كتاب نسخ¹.

فالقاضي الفاضل اتجه نحو مصر قاصدا العمل في ديوان الإنشاء في العام 543 هـ، بالقاهرة، وذلك للتدرب على الإدارة وفن الكتابة والإنشاء، وكان له ذلك إذ أفاد من ابن الخلال وابن قادوس، وفي العام 549 هـ، غادر متجها نحو الإسكندرية؛ إذ عمل في ديوان ابن حديد، ويبدو أن الرجل قد أفاد كثيرا من علوم أهلها ومن الحركة الفكرية والاتجاهات السياسية المختلفة، وقد تنامت موهبة الكتابة لديه أكثر فأكثر، وفي العام 556 هـ، تلقى دعوة من القاهرة خاصة من الملك العادل رزيك ابن الملك الصالح طلائع بن رزيك؛ حيث خدم معه في إدارة ديوان الجيش².

وتدرج القاضي في حياته وكان الفضل يعود إلى والده الذي رأى فيه العديد من المواهب منها الموهبة الأدبية والكتابية إلى أن أصبح صاحب ديوان الإنشاء ووزير الدولة في عهد صلاح الدين الأيوبي وهو شخصية ذات ذكاء حاد ودهاء مكناه من التوصل إلى أعلى المراتب الإدارية في دولة صلاح الدين. وقد اجتمعت فيه خصال كفلت له النجاح في الحياة السياسية في العهدين الفاطمي والأيوبي، منها لبقته وقوته واتزان، وحكمة مكنته من حسن التصرف في المآزق، والحفاظ على حياته في خضم الفوضى السياسية والمؤامرات؛ ناهيك بلباقته التي استطاع أن ينقل بها صلاح الدين في أكثر من موقف من المواقف الحرجة. ونورد مثلا لبعضها: عندما كان صلاح الدين محاصرا في عكا احتاج إلى المعونة المصرية التي تأخر وصولها، وكان نائبه في مصر آنذاك أخاه الملك العادل، فطلب صلاح الدين من عماد الدين الأصفهاني أن يكتب بذلك إلى الملك العادل يستحثه على الإسراع في إرسال المعونة، فكتب إلى العادل اليسير لنا الحمل من مالنا أو من أن شدة لهجة الرسالة أزعجت الملك العادل، فكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان أخيه، فتدارك القاضي الفاضل الأمر، وكتب إلى الملك العادل مدافعا عن صلاح الدين، ومحاولا في الوقت ذاته أن يخفف من الملك العادل³.

¹ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 18 ص 202.

² هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص 72.

³ هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص 32.

أما ما ذكره المولى صلاح الدين من قوله : (يسير لنا الحمل من ما لنا أو ماله) : فتلك لفظة ليس المقصود فيها من الملك النجعة، وإنما المقصود من الكاتب السجعة. وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة، صيرت عيب الأقالام، فسدت خلل الكلام وعلى المملوك (القاضي الفاضل) الضمان في هذه النكتة، فقد فات لسان القلم منها في أي شيء¹.

ولكن هناك أحداث كثيرة حدثت منها المؤلم مثل سجنه واجتياح الفرنج لمصر ومنها السار مثل مشاركاته في حل الكثير من القضايا السياسية انتهت باستلام صلاح الدين الوزارة وذلك 564هـ ؛ انتقل القاضي الفاضل إلى خدمة صلاح الدين الأيوبي ، وعمل وزيرا له ورئيسا لديوان الإنشاء سنة 567هـ، ثم توجه بعد إلى العراق مع صلاح الدين، واشترك في الحملات العسكرية في فلسطين والأردن وزيارته وتحركاته في عكا وعسقلان والقدس ودمشق، ولكنه بعد وفاة صلاح الدين سنة 589هـ، وكان هناك خلاف كبير بين ابنه الملك العزيز صاحب مصر، والملك الأفضل صاحب الشام، وقف القاضي الفاضل إلى جانب العزيز².

ففي ديوان الإنشاء يمكنه أن يأخذ نصيبه من العلوم المختلفة منها النحوية والصرفية واللغوية والبلاغية وحيث برع القاضي الفاضل في هذا اللون وكذلك علم العروض وعلوم التشريع الفقه والأصول. ومن أبرز أحداث حياته المهمة التي شكلت الجزء الكبير من شخصيته ما حدث مع أقرانه من الشعراء والكتاب، فقد هجاه الشاعر ابن عنين (ت 630 هـ) ، ومدحه الشاعر ابن الساعاتي ت 604 هـ ، وقد أكثر ابن عنين من هجوه وذكر الحدة فقال وهو أحسن ما يكون من التهكم المنسرح (الكامل)³ : (يكذب من قال إن حديثه ... في ظهره من عبيده حبل)⁴

¹ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ص 161 .

² كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م ، ص 377.

³ محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي، ديوان ابن عنين. تح: مردم خليل . بيروت: دار صادر، 1959م ، ص 182-

وقد حفظ جميله العماد الكاتب الأصفهاني (ت 597هـ) لما قدم له القاضي الفاضل من خدمة ورعاية¹

- أخلاقه وصفاته:

وكان الفاضل رحمه الله تعالى قليل النحو ولكنه له دربة توجب له قلة اللحن كان عند ابن سناء الملك من إنشائه اثنان وعشرون مجلدة وعند ابن القطان أحد كتابه عشرون مجلدا وكان متقللا في مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين ويركب معه غلام وركاب ولا يمكن أحد أن يصحبه ويكثر تشييع الجنائز وعيادة المرضى وزيارة القبور وكان دخله ومعلومة في السنة خمسين ألف دينار سوى متاجر الهند والمغرب وغيرهما مات مسكوبا أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال وإقبال الإدبار وهذا يدل على أن الله به عناية وله أوقاف في فكاك الأسرى وأعان الطلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب وله معاملة حسنة مع الله وتوجد في الليل لما بلغه أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية من ابن شكر وزيره فيهيئه².

وقد ذكره المؤرخون في مؤلفاتهم أنه كان ديناً يكثر من الصدقات والعبادات، وله وقوف كثيرة على الصدقة وكان يكثر من فك الأسرى؛ وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان. وكان ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حذبة يغطيها الطيلسان.

وقالوا عنه أيضاً: إنه كان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضر أحداً؛ وكان يجلب أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ولا ينتقم من أعدائه فيما أن يحسن إليهم أو يقتصر على الأعراض عنهم وتركهم³.

وكان لا يعرف أحداً في عصره إلا وقد مدح القاضي الفاضل وذكروا صفاته ونبل أخلاقه في شعرهم ومن هؤلاء: ابن سناء الملك، وابن الوردى، وابن نبيه، والرشيد النابلسي، والتاويدي، وابن الساعاتي، وابن الدوري وغيرهم¹.

¹ عماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، د.م: دار المنار، 2004م، ص 345.

² ابن خلكان، الوافي بالوفيات، ج 18 ص 202.

³ أحمد حسن الزيات، باب الأدب المصري، مجلة الرسالة، العدد، 217، ص 67.

وقد مدح عماد الدين القاضي الفاضل أيضا وأشاد به كثيراً ويقول فيه : من الكامل

الفاضلُ المفضالُ والتَّدسُّ ... المُسدي الندي والماجدُ المُجدي

ما إن يضلُّ بقاصدٍ أَمَلٌ ... إلا ويضمنُ أنه يَهدي

يُسدي إليَّ منيرَ أنعمِهِ ... وأنيرَ مدَحَتَهُ كما أُسدي

العُرفُ معتادٌ له خلقٌ ... وبه تراه غيرَ مُعتدٍ²

- حياته الأدبية وآثاره ودوره الثقافي في عصره :

- حياته الأدبية:

هو صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة العربية³، كان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني كاتب معروف وأديب له طابع خاص، وكان مصدر قوة لكثير من الأدباء والمفكرين وناقد لكتابتهم وكان ينقد الشاعر هبة الله ابن سناء الملك وكان أسلوبه لا يكاد يجمله مطلع على الآداب العربية، فهو كما يقال عنه - رب العلم والبيان، واللسن واللسان، والقرينة الوقادة، والبصيرة النقادة، والفضل الذي ما سمع به الأوائل لمن عاش في زمانه، وما تعلق أحد بغباره أو جرى في مضماره وهو كذلك شاعر جيد الشعر كما سيجيء، وشعر القاضي الفاضل صورة من نفسه، يدل على رقة حسه؛ أكثره في الغزل، لأنه أسلس ضروب الشعر قيادة للمحسنات اللفظية التي أغرم بها القاضي الفاضل غراماً شديداً، وكلف بها كلفاً ظاهراً، في غير تصنع واضح، أو تطرف يخرج بها عن المعنى الذي يقصده. وقد اكتسب القاضي الفاضل من البهاء زهير وابن سناء الملك وابن قلاقس وغيرهم من الشعراء الذين عاشوا معه في مصر، رقتهم وموسيقاهم الشعرية العذبة، كما اكتسب مما كان يأتيه من أشعار الأندلسيين الذين كانوا في إبان نهضتهم الأدبية، الأخيلة الرائعة والطرائق المستحدثة، وإن كان قد حافظ على نظام سابقه، فظل ينظم

¹ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18 ص 206 .

² الأصفهاني، خريدة القصر، ج2 ص 627؛ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة: دار المعارف، 1977م، ص 367.

³ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج6 ص 530 .

فيما تعود سماعه وما كثر النظم فيه فلم ينظر إلى الطبيعة الساحرة نظرة الأندلسيين إليها، ولم يجب الآفاق البعيدة التي جابوا فيها؛ وربما كان ذلك نتيجة لنشأته الدينية واحتراماً لجلال المركز الذي وصل إليه¹.

آثاره:

برع القاضي الفاضل في الكتابة وكتب في النثر والشعر والنقد؛ حيث كتب في النثر والشعر والنقد ، ففي النثر كتب الرسائل الديوانية والإخوانية وضمنها موضوعات مختلفة، فالديوانية تناولت أغراض مختلفة وكثيرة ، كالمناشير والعهود والتقاليد والتواقيع والتذاكر ورسائل الوحدة الإسلامية، ورسائل الحروب الصليبية، وهي على أربعة أنواع ؛ رسائل الجهاد، ورسائل التهئة بالفتوح، ورسائل الاستنجد، ورسائل السلم والمعاهدات².

أما الرسائل الإخوانية فهي رسائل ذاتية كالتهاني والتعازي والتشوق والشكر والولم وغيرها الكثير ورسائل موضوعية كالشفاعات والحوائج والوصف والمدح³.

أما الشعر فقد نظمه ، وكتب في الموشحات، وجاء شعره على أغراض كثيرة وكتب في النقد أيضا ومن آثاره :

- الفاضل من كلام القاضي الفاضل، وهي رسائل مختارة جمعها ابن نباتة ت 768 هـ، وهي ما زال مخطوط.

- الدر النظيم من ترسم عبد الرحيم، وهي رسائل جمعها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ت692هـ، حقق د / أحمد أحمد بدوي ، مكتبة النهضة القاهرة ، مصر ، 1969م .

- فصوص الفصول وعقود العقول، وهي مختارات من رسائله التي كان يرسلها لابن سناء الملك ، وفيها رسائله النقدية جمعها ابن سناء الملك ت608هـ، نشرت عام 1993م، ضمن كتاب البديع لغة

¹ أحمد حسن الزيات، باب الأدب المصري، مجلة الرسالة، العدد، 217 ، ص 31 .

² محمد عبد الرحمن عطا الله ، رسائل القاضي الفاضل، دراسة تحليلية ، طنطا: دار الحضارة، 2000م، ص 29 - 79 .

³ المصدر نفسه ، ص 81- 118 .

الموسيقى والزخرف للدكتور مصطفى الصاوي الجويني¹ ، حيث أشار شوقي ضيف إلى أنها كانت رسائل متبادلة تدور حول مسائل في الأدب والشعر² .

- هناك رسائل متفرقة في كتب التراث مثل كتاب نهاية الأرب في فنون العرب للنويري، ت732هـ ، وكتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، للقلقشندي ت821هـ، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي ت665هـ، وغيرها .

- ديوان شعره، وهو بعنوان: ديوان القاضي الفاضل ، عبد الرحيم بن علي البيساني، وهو في جزئين ، جمعه وحققه الدكتور أحمد أحمد بدوي ، وراجعته إبراهيم الأبياري 1961م.

- موشحاته التي لم يصلنا منها إلا موشحان ونصف موشح، وهي مدونة بديوانه في الجزء الأول.

- وهناك إشارات عند ابن الحجة الحموي ت837هـ، في كتابه خزانة الأدب وغاية الأرب، حول معارضته المقامات .

- دوره في الثقافة في عصره:

كان للقاضي الفاضل دور كبير في الحياة الثقافية العلمية والأدبية في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر وأوائل العصر الأيوبي، كما كان له دور في الحياة التاريخية والسياسية، وما يهمنا هنا هو دور الذي قام به في الحياة الثقافية سواء في العصر الفاطمي أو الأيوبي على هذا النحو :

- ففي العصر الأيوبي:

قام بدورا كبيرا ؛ حيث شجع الخلفاء الفاطميون رجال العلم والأدب، وأسرفوا عليهم من العطايا والمال كما سعوا لجمع الكتب من جميع الأمكنة، وصرفوا في سبيل ذلك الكثير من الأموال³، ورغم كل ذلك إلا أن من أظهر اهتمام الفاطميين المبالغ فيه بالعلم والعلم بناء ما يسمى بدار الحكمة أو دار المحكمة ، حيث كانت هدفها نشر العلم بفروعه المختلفة وخاصة العلوم الإسلامية، وعلوم الأوائل، بل والاهتمام

¹الصادر عن دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية، 1993، ص 245.

² شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة: دار المعارف، 1974م ، ص 495.

³ أبو بكر بن علي بن عبد الله الأزراي ابن حجة الحموي، خزانة الأدب ونهاية الأرب، بيروت : دار القاموس الحديث، د.ت، ص 461.

بالعلم وتصنيف المصنفات الكبيرة، بل وتطرق الأمر بهم إلى بناء الجامع الذي أطلق عليه الأزهر الشريف في مصر، بالإضافة إلى مكتبة كبيرة تحوي آلاف الكتب سميت المكتبة الكبرى وأقيمت بقصر الخلافة، وقامت الدولة في هذا العصر بإرفاق دور العلم بالمحابر والأوراق والأقلام اللازمة في العلم ، التي الدور التي كان من روادها القراء والنساخ ومن يهتمون بالعلم عامة في شتى المجالات¹ .

بل لم يكن الأمر بهذه الصورة فقط من الاهتمام بالعلم في هذا العصر، بل أشار الكثير بدور العلم التي كان العلم منها هو نشر العلم بشتى صنوفه، فكانت هناك جوامع أخرى تقام غير الجامع الذي أقيم بمصر والمسمى الجامع الأزهر مثل جامع الحاكم ، والمشهد الحسيني ، والجامع الأقمر والجامع الأفخر، حيث كل هذه الدور التي اهتمت بالعلم جعلت العصر الفاطمي بين عصور الفكر الإسلامي يبدو وكأنه درة مضيئة بمعالمها البارزة².

وفي ظل الاهتمام الكبير بالعلم حظي أهل العلم بالاهتمام الكبير ؛ حيث أخذوا مكانتهم العلمية بشكل ملفت، وأسندت إليهم وظائف مهمة في الدولة بل وفي حلقات العلم والثقافة، فهم أهل العلم والعلماء، وهنا برز نجم القاضي الفاضل ؛ حيث تعلم وسمع الحديث النبوي على يدي الحافظ السلفي، حيث كانت مدرسة السلفي، مدرسة بالمعنى الكبير، الذي كان لنظامية بغداد حيث كانت مؤسسة علمية كبرى، وكانت هناك مكتبة ضخمة فاقت الحد من الكتب في قصر الخليفة الفاطمي والتي تركت يشرف عليها القاضي الفاضل والتي كان بها 120 مجلدا تسلمها القاضي الفاضل³.

- وفي العصر الأيوبي:

حيث تمتع القاضي الفاضل بمكانة تاريخية وسياسية وأدبية كبيرة ، في ظل التغيرات التي حدثت في هذا العصر؛ حيث ترك له صلاح الدين الأيوبي الوزارة وشؤون الثقافة والعلم، بل كان هو المسؤول الأعلى لهذه المؤسسات التعليمية والتي كانت يطلق عليها مدارس تعليمية، وكان هو الرجل الأول الذي يختار المدرسين، وقراء القرآن والحديث والوعاظ والأئمة.

¹ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص 108.

² محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الفاطمي، ص 164.

³ شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 367 .

حيث كان دور العلم في هذا العصر ظاهرة في المساجد والمدارس ، فالمساجد كانت تدرس العلم الديني بمختلف فروعها، بالإضافة إلى الخوانق والأربطة والزوايا، الخاصة ، كل ذلك بالإضافة إلى مكاتب صغيرة تقوم بتدريس الصبية القرآن والقراءة، والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وتعطي الفرصة لمن يريد بعد ذلك إتمام دراسته في المعاهد الكبيرة ، وهذا الدور جميعها كانت مليئة بالكتب والخزائن التي تحفظها، ويعين لها المدرسون، وتخفيف أي مصاعب يتعرض لها الطلبة من مال وكتب، حيث كان يدفع رواتب للطلبة والمدرسين والمشايخ فيها حيث كان لها وقف يتكلف بها حتى لا تتوقف حركتها، وكان الدارس فيها يدرس ما يميل إلى هو حيث يختار شيخه وكتابه حسب ميوله الخاصة وقدراته الشخصية، الأمر الذي جعل المدارس تكثر بشكل كبير على هذا النحو:

- المدرسة الناصرية:

حيث كانت توجد بمنطقة تسمى القرافة، وهي التي أمر بإقامتها صلاح الدين، وجعل لها أوقافا كثيرة للإئفاق عليها وتقديم الدعم المادي لها بكل ما فيها من طلبة ومشايخ ومدرسين¹.

- المدرسة الفاضلية :

وهي تلك المدرسة التي أسسها القاضي الفاضلي منطقة القاهرة ، بدرب الملوخية، بجوار دار العلوم ، وجعل فيها تعطى الدروس في شتى العلوم، والقراءات ، وجعل لها الكثير من الكتب الموقوفة عليها، التي وصلت إلى ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم، والتي تعكس دور القاضي الثقافي والعلمي والذي تمثل في إقامة مدرسة تدرس العلوم المختلفة ، وتساهم في الحركة العلمية والثقافية في ذلك العصر، بل وتعكس دور القاضي الفاضل الريادي على مستوى الثقافة والعلم، بالإضافة إلى الجانب لتاريخي والسياسي له؛ حيث كان لمكتبة هذه المدرسة دور كبير في نشر العلم والثقافة حيث كانت مليئة بالكتب حتى نزل الغلاء بمصر فنتشر الضرر بالبلاد فبيعت كتبها حتى ضاع معظم ما فيها من كتب².

ويبدو أن القاضي الفاضل بناها بجوار بيته، في سنة ثمانين وخمسمائة، وجعل فيها قاعة للإقراء، أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبي ناظم الشاطبية، ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي، ثم الشيخ علي

¹ عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، بيروت: دار الكتب العلمية ، 1990م، ص 139.

² أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصور الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت، ص 43.

بن موسى الدهان وغيرهم، ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الإسكندراني، ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد، وذهبت كلها. وكان أصل ذهابها أن الطلبة التي كانت بها، لما وقع الغلاء بمصر في سنة أربع وتسعين وستمائة، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوري، مسهم الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية، فتفرقت، وبها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جدًا، مكتوب بالخط الأول الذي يعرف بالكوفي، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، ويقال أن القاضي الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار، على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو في خزنة مفردة له بجانب المحراب من غريبه، وعليه مهابة وجلالة، وإلى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام، وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها، وقد تلاشت لخراب ما حولها¹.

وعندما غزا الملوك الكاثوليك غرناطة صدرت الأوامر إلى جميع المورسكين بتسليم كل الكتب للسلطات [الكاثوليكية] وذلك لتسهيل عملية ردهم للنصرانية وليقوم الخبراء بفحصها بحيث يتم الاحتفاظ بالكتب الفلسفية والطبية المتعلقة بالتاريخ، أما غير ذلك من فنون العلم فيتم تدميرها، غير أن الكاردينال سيسنورس أصدر مرسومًا يقضي بحرق كل الكتب العربية في أحد ميادين غرناطة العامة. ولقد عرفنا بعضًا من المكتبات الخاصة القيمة التي كانت رهن إشارة العلماء² ودُرّس فيها أفضل المشاهير والأعلام آنذاك ومن هؤلاء الأعلام قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد³.

– المدرسة الكاملية :

¹ المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج4 ص 204 .

² هوتسما وأرنولد وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، الإمارات: مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998، ج31 ص 9587 .

³ فقد ترجم له موفق الدين في مرشد الزوار إلى قبور الأبرار ج 2 ص 23 :هو القاضي العلامة، تقي الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ محمد الدين أبي الحسن على وهب بن مطيع بن دقيق العيد القشيري.

وتلك المدرسة أنشأها الملك الكاملناصر الدين محمد بن العادل الأيوبي، وهي تقع في منطقة بين القصيرين بالقاهرة، حيث عرفت بدار الحديث، حيث كانت تختص بتعليم علوم الحديث¹.

- المدرسة الصالحية :

وهي مدرسة أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب²، ومن هذه العرض الذي قدمنا له ، نستطيع أن نعرف الدور الثقافي والتعليمي الذي قام به القاضي الفاضل؛ حيث قام في فترته والتي كانت بين دولتين اهتمتا بالعلم والعلماء، والمدارس حيث كانت المدرسة الفاضلية تعاون وبشكل قوي في الحياة الثقافية والعلمية، وظلت على ذلك الدور إلى بعد وفاته، حيث ساهم القاضي الفاضل في الحركة الأدبية في هذين العصرين من خلال شعره ونثره ونقده³ وما قام به من محاولات في الموشحات⁴ والمقامات⁵.

- أساتذته:

تتلمذ القاضي الفاضل عبد الرحيم في مصر على يد أمهر الأساتذة وأكثرهم خبرة في الدواوين والمكاتبات ومن أهم الأساتذة الذين اكتسب منهم مهاراته الأدبية والكتابية والسياسية نذكر منهم :

1- ابن الخلال:

أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال، الملقب بالموفق، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد العبدي، وبقي بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة، فانقطع في بيته. ويقال إن القاضي كان يرعى له حق الصحة والتعليم، فكان يجري عليه ما

¹ النعيمي ، الدارس في المدارس، ج 2، ص 213.

² النعيمي ، الدارس في المدارس، ج 1، ص 250.

³ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عمان: دار الشروق، 1993م ص 598.

⁴ البيساني، ديوان القاضي الفاضل ، ص 283.

⁵ ابن حجة الحموي، أبو بكر بن علي بن عبد الله الأزاري، خزائن الأدب ونهاية الأرب، بيروت :دار ومكتبة الهلال، د.ت ص 461.

يحتاج إليه إلى أن مات في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسائة، رحمه الله تعالى¹.

حالمًا استقر عبد الرحيم في مصر، قصد ديوان الإنشاء في القاهرة، وقد قابل الشيخ موفق الدين يوسف ابن الخلال، كاتب الدست ورئيس ديوان الإنشاء. وكان ابن الخلال قد سمع عن نية عبد الرحيم وقصده من القاضي الأشرف، فاستقبله بكل لطف وحفاوة، وبأدله بعض الحديث عن عسقلان وغيرها، ثم استفسر عن أهدافه، فرد عليه عبد الرحيم بأنه يريد التدرب على الكتابة والإنشاء والإدارة، ولما سأله ابن الخلال عما أعدة لفن الكتابة أجاب بأن محصولة العلمي هو حفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة. فأجابه ابن الخلال قائلاً: في هذا بلاغ. ثم طلب منه أن يلازمه ففعل، ثم طالبه بعد ذلك بنشر ديوان الحماسة ففعل. وهكذا بدأ عبد الرحيم تدريبه على يد أحد كبار الكتاب الإداريين في مصر².

2- ابن قادوس:

وتدرب على يد عالم كبير آخر وبرع في فن البلاغة وقواعد اللغة العربية هو ابن قادوس محمود بن إسماعيل بن قادوس، القاضي، أبو الفتح المصري الكاتب، المتوفى: 551 هـ، وأصله من دمياط، وهو أحد من اشتغل عليه القاضي الفاضل، وكان صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وكان يعظمه ويصفه ويسميه ذا البلاغتين. وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالباً إلا في ركوبه من القصر إلى منزله، ومن منزله إلى القصر لانشغال ابن قادوس بالدواوين فكان الفاضل يسايره ويجاربه في فنون الإنشاء والشعر³.

ويرى الباحث أن القاضي عبد الرحيم تدرب في أثناء دراسته على يد اثنين من كبار المتنفذين في مصر، إذ أصبح اسمه يقترب باسميهما في بداية أمره في الديوان، ثم أصبح اسمهما يقتربان باسمه بعد أن أصبح كاتباً مبدعاً تنسب إليه مدرسة فنية نثرية تعرف بمدرسة القاضي الفاضل⁴.

ويرى الباحث أنه من خلال النصوص التي بين أيدينا نلاحظ أن القاضي الفاضل كان قوي الشخصية في الرد على الحاقدين ولم يكن يتأثر بسخريتهم منه من خلال استغلال الحدة التي كانت في ظهره

¹ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/ 219 - 225.

² القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ص 43.

³ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج 38 ص 66.

⁴ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ص 44.

واتخذوها محل سخرية فقد تحلى القاضي الفاضل بشخصية قوية لها مكانتها إضافة إلى الصفات الحسنة التي تميز بها القاضي الفاضل وعلمه وأدبه وفصاحته غطت على العيوب الجسمية وهي التي واصلته إلى المكانة العالية التي وصل لها.

- وفاته:

مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة عن سبعين سنة¹، واختلف المؤرخون حول مسقط رأسه هل في عسقلان² أم هي بيسان³، ومات القاضي الفاضل موت الفجأة، وهو أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال واستيلاء الإدبار، كان أمر بإصلاح الحمام وقت السحر فأصلح، وجاءت ابنته تخبره بذلك فوجدته جالسا ساكتا فهابته لأنه كان مهابا، فطال سكوته حتى ارتابت، فقدمت قليلا قليلا فلم تر عليه أثر حركة، فوضعت يدها عليه فخرّ صريعا وأخذ في النزع، وقبض وقت الظهر وقت رجوع عسكر مصر مهزوما، ودخل الملك الأفضل فصلّى عليه ودفن بالقرافة، وكان له يوم مشهود⁴.

- مكان دفنه:

فهو بسفح دبل المقطم في القرافة الصغرى بالقاهرة، وطبقا لمولده ووفاته يكون الفاضل، قد عاش في أواخر العصر الفاطمي، وأوائل العصر الأيوبي، ودوره السياسي والتاريخي والأدبي في العصر الأيوبي، كان أكثر طبقا لدوره القيادي في عهد صلاح الدين الأيوبي⁵.

وقد رثاه الشعراء ومنهم القاضي ابن سناء الملك⁶ بأشعار جزلة حسنة والذي كان يسمع كلام وانتقادات القاضي الفاضل عبد الرحيم فقال فيه:

¹ ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد، العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص 23 .
² ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3 ص 158؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6 ص 56؛ المقريزي، المواعظ الاعتبار، ج 2 ص 366 .

³ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار ابن كثير، 1986م، ج 4 ص 324؛ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم أبو شامة، الروضتين، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م، ج 3 ص 158 .

⁴ ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6 ص 532 .

⁵ شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، القاهرة: دار المعارف، ط 2، 1990م، ص 410.

⁶ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ج 6 ص 2765، هو: الرشيد جعفر بن سناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد السعدي المصري المعروف بابن سناء الملك: أحد أدباء العصر وشعرائه المجيدين، ذاع صيته وسار ذكره، أخذ عن الحافظ أبي طاهر أحمد بن

عبد الرحيم على البرية رحمة ... أمنت بصحبته حلول عقابها

يا سائلا عنه وعن أسبابه ... نال السماء فسله عن أسبابها

والدهر يعلم أن فيصل خطبه ... بخطايراعته وفصل خطابها

ولقد علت رتب الأجل على الورى ... بسمو منصبها وطيب نصابها

وأنته خاطبة إليه وزارة ... ولطالما أعيت على خطابها

ما لقبوه بها لأن يعلو بها ... أسماؤه أغنته عن ألقابها

قال الزمان لغيره إذ رامها ... تربت يمينك لست من أترابها

أذهب طريقك لست من أربابها ... وارجع وراءك لست من أصحابها

وبعز سيدنا وسيد غيرنا ... ذلت من الأيام شمس صعبها

وأنت سعادته إلى أبوابه ... لا كالذي يسعى إلى أبوابها

تعنو الملوك لوجهه بوجوهها ... لا بل تساق لبابه برقابها

شغل الملوك بما يزول ونفسه ... مشغولة بالذكر في محرابها

في الصوم والصلوات أتعب نفسه ... وضمان راحته على إتمامها

وتعجل الإقلاع عن لذاته ... ثقة بحسن مآلها ومآبها

فلتفخر الدنيا بسائس ملكها ... منه ودارس علمها وكتابها

صوامها قوامها علامها ... عماها بذالها وهابها¹

1. الفصل الأول : القاضي الفاضل شاعرًا

سلفه، واتصل بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني فكانت له منزلة عنده، وكان في خدمته بدمشق سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ثم عاد إلى القاهرة، وكان بينه وبين الفاضل ترسل، ومدحه بعدة قصائد .

¹ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، البداية والنهاية ، ج 16 ص 700 .

1,1. المبحث الأول: شعره في النقد القديم ، وينقسم إلى مطلبين:

1,1,1. المطلب الأول: آراء النقاد القدامى في موضوعه الشعري.

قلنا قبل ذلك أن القاضي الفاضل هو عبد الرحيم البيساني العسقلاني الملقب بالقاضي الفاضل، أصل أبيه من بيسان، وتولى القضاء والحكم بعسقلان⁽¹⁾.

ولما شب ابنه عبد الرحيم أرسله إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في العصر الفاطمي أيام الحافظ "524-544" فتتلمذ فيه على أشهر الكتاب والشعراء في هذا العصر⁽²⁾.

ثم التحق بخدمة قاضي الإسكندرية المعروف بابن حديد، ثم تركه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة مرة أخرى في عصر الظاهر الفاطمي "544-549"⁽³⁾، ولما استقل أسد الدين شيركوه بالوزارة التحق بخدمته، ثم بخدمة صلاح الدين من بعده وقرّبه صلاح الدين منه، وسرعان ما أصبح وزيره ومشيره الأول في شئون الدولة، وأتاحت له هذه الصلة أن يلعب اسمه في سماء الأدب: شعره ونثره؛ فقد أكثر المؤرخون⁽⁴⁾.

وكان القاضي الفاضل شاعرا، وله ديوان شعر، تناول فيه أغراض مختلفة، كالغزل، والفخر، والوصف، والثناء، والخمرة، والحكمة، والعتاب، والمدح، والهجاء، والشيب، والشوق، والاعتذار، بالإضافة إلى النذر القليل من الموشحات، وكان شعره يتميز بحس إنساني خالداً، يعكس نفساً إنسانية ذات تجربة عميقة في الحياة، ولقد قال الكتاب والشعراء الكثير فيه فمنهم من مدحه؛ حيث يقول فيه العماد الأصبهاني: (رب القلم والبيان واللّسن واللسان، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع)⁽⁵⁾.

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، 1/ 50.

(2) أبو شامة، الروضتين 2/ 244.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 408.

(4) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص492.

(5) الخريدة، 1/ 35.

ويرى الباحث أن تمجيد صاحب الخريدة هو الذي جعل صلاح الدين الصفدي وابن حجة الحموي يقعان في خطئهما ويظنان أن القاضي الفاضل هو الذي استحدث التورية! ونحن نتساءل ما هي الشريعة التي يشير إليها العماد؛ فإن من يرجع إلى ديوان القاضي الفاضل (1) .

ولا يجد فيه إلا شاعرًا من الطبقة الثانية، ومن الصعب أن نقرنه إلى الشعراء الممتازين في العصر الفاطمي لا من حيث روحه وقلة الدُّعابة عنده، بل من حيث شعره العام؛ إذ نرى فيه آثار التكلف والتلفيق واضحة كقوله في القصيدة الأولى من ديوانه يصف بلاغته (2).

ولي قلمٌ منه عينُ الكلا ... م يجري فتنظُرُ عينَ الكمالِ

يراعُ تظل رياضُ الطرو ... س منها موشحة بالصلال

وكتبُ يفيضُ بأرجائها ... يمين الجدا ولسان الجدال

تقدّمها الشكلُ من فوقها ... كمثل السهام أمام النَّصالِ

وكم بريت وانبرت للعدوّ ... كوئب الشرار وهديّ الجبالِ

وكم قد كسبن عواري ظُبًا ... وكم قد سلبن عواري عوالي

يكللُ أفلاك قرطاسها ... شمسٌ شوامسٌ عند الزوالِ

فهل تجد في هذا الشعر روحًا أو جمالًا سوى هذا التلفيق للجناس، وكان يتصنع له كثيرًا كما كان يتصنع لضروب الطباق والتصوير الأخرى من تشخيص وغير تشخيص، وأيضًا فإنه كان يتصنع لاصطلاحات العلوم كقوله (3):

لي عندكم دينٌ ولكن هل له ... من طالبٍ وفؤادي المرهونُ

(1) ديوان القاضي الفاضل "نسخة فوتوغرافية بدار الكتب" وقد ذكر الناسخ في آخرها أنه كتبها من نسخة كثيرة التصحيف.

(2) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 493.

(3) عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997م، ص 453.

فكأنني أَلِفٌ ولا مٌ في الهوى ... وكأن موعد وصلكم تنوينُ

أو تورياته فلعل أطرفها ما رواه ابن حجة من قوله⁽¹⁾:

في خِدِّه فَخٌّ لعطفةٍ صُدِغِه ... والخالُ حَبَّتُه وقلبي الطائرُ

وقوله⁽²⁾:

بالله قل للنيل عني إني ... لم أشفَ من ماءِ الفرات غليلاً

وسل الفؤادُ فإنه لي شاهدٌ ... أن كان طرفي بالبكاء بخيلاً

يا قلب كم خلّفت ثمّ بثينةً ... وأظن صبرك أن يكون جميلاً

فقد ورّى في الطائر وجميل.

ومما نلاحظ أنه مهما يكن فشعر القاضي الفاضل لا تبدو عليه خفة الروح التي رأيناها في الشعر الفاطمي، وربما كان ذلك يرجع إلى أنه ليس مصري النشأة؛ إذ كان من عسقلان؛ فهو لا يعبر عن الروح المصرية. على أننا قلما نجد عند غيره هذه الروح، وكأنما نضب معينها تحت لفح الحروب الصليبية، وأياً كان فشعر القاضي الفاضل واضح فيه التكلف والتصنع لألوان البديع ومصطلحات العلوم، وهو شعر في الجملة مصنوع، وقلما نجد فيه شعوراً أو جمالاً⁽³⁾.

سمات شعر القاضي الفاضل :

- الشعر العذري العفيف الذي يعاني فيه الحب من المحبوب كثيراً حيث لا يجده منه سوى القسوة في الحب؛ حيث يقول القاضي الفاضل في قصيدة غزل عذري:

هذا عذاب لا يفتر بأقله قلبي تفطر

أفلا يفكر في الحب وما دهاه أفلا يفكر

(1) البغدادي، خزنة الأدب، ص 241.

(2) المصدر نفسه، ص 242.

(3) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 494.

ما كان يحذر ناله منكم وما لا كان يحذر

أفلا يرى في جنة في الوصل ذا المحروب يجبر

قذفوه في نسيانهم حتى ولا بالسوء يذكر

بأي هلال من رآ ه أفاد أجرا حين كبر

كم صام قلب عن ذنو به ثم لاح له فأفطر¹

وبالنظر إلى هذه القصيدة نجد أنها جاءت على خطى القدماء ، فهمي تمثل مقطوعة نثرية من روائع القاضي الفاضل ؛ حيث يصور كيف تكون العواطف فاترة ، والإيحاءات عادية لا عمق فيها، ولكنه غير رأيه في الأبيات الأخيرة والتي يقول فيها:

لطف النسيم فحل من أكمامه ما قد تزرر

النهر مزهو جلا ه الزهر كالسيف المجوهر

حيث يظهر في آخر القصيدة العواطف الجياشة ، والصور الخيالية العميقة دلالة وتأثيرا ، بل وتظهر فيه بوضوح المرأة التي تمثل محور قصيدة الغزل العذري قائلا :

لثغور زهر أومضت وخذود ورد قد تحفر

ولكن بالنظر إلى هذه الأشعار بصورة أكثر نجدها تعكس مرحلة تاريخية صعبة من حياة الإنسان العربي، على الجانب السياسي والثقافي ؛ حيث تتأثر عواطف الفرد العربي بمثل هذه الأحداث تأثرا كبيرا في فترة من الفترات ، ثم تأتي هذه العواطف وتخبو، بل وتميل إلى البرود العاطفي، في حين لا يصور هذا البرود العاطفي انكفاء الإنسان، وتموت عواطفه كلية أمام المرأة بصفة خاصة والحياة بصفة عامة ، ولهذا واجه القاضي الفاضل وتصدى لهذه الصعوبات فمثل ما يقول من أشعاره؛ حيث قدم غزلا بنفس الطريق التي يبدو عليها الشطح، ولكن رغم هذه الطريقة التي عمل بها الفاضل وغيره من القدماء إلا أن هذه الطريقة استطاعت أن توصل الرسالة الأدبية والإنسانية التي أراد التي يوصلها الشاعر إلى الناس عامة ؛ حيث

¹ الديوان ، ج 1 ، ص 40 ، 41.

تبدأ هذه الطريقة في قص عذاب القلب أي قلب المحب من كثر الحب ، الأمر الذي يؤدي إلى معاناة المحب ، ويصور الحب بها الكثير من المعاناة والعذاب وليس أمر هين، حيث يصير قلب المحب المحور الذي يدور حولها التأثير في هذه العلاقة التأثيرية الإنسانية، ومن هنا نجد القاضي الفاضل يوجه اللوم إلى المحبوب ، ويدعوه أنه يفكر كثيرا في حالته، فالمحب نال من العذاب ما كان يتوقعه ، بل وأكثر من ذلك ، فالفاضل يعرف جيدا أن المحب يتألم ويتعذب من كثر الحب، ولهذا يوجه نداء إلى المحبوب ، طالبا منه أن يفكر ويكتفي بأن المحب يتألم ويتعذب فكفى به من ذلك فيرفق به، كل ذلك عن طريق طرحه الفاضل يدل على كيف كانت المحبوب سلبيا أمام عذاب المحب ، وهو هنا يعبر بل وتعكس عن الحالة الصعبة التي ألمت بالمحب العاشق ، بل وأيضا الموقف السلبي للمحبيب أو المحبوبة فهذا أمر يوضح مدى التناقض بين الطرفين ؛ الطرف الذي يحب ويتألم بسبب الحب ، والطرف الآخر الذي يبدو عليه القسوة أمام المحب، معبرا القاضي الفاضل من ذلك كله مدى التعبير عن النفس من خلال عاطفة اليأس والحرمان والبؤس والمكاييدة والمعاناة ذات البعد الإنساني العميق بين الطرفين المحب والمحبيب.

- محاولة الخروج عن سمات المحب العذري وكما هو معروف عنه أنه رغم المعاناة في الحب الذي يقاسيه من المحبوب القاسي في حبه إلا أنه بمجرد رؤية المحبوبة يعود إليها ناسيا المعاناة وإذا فارقها اشتد وهج شوقه ؛ ومن ذلك أن العاشق والمحبيب رغم كل معاناته في الحب إلا أنه عاد مرة أخرى محادثا محبوبته، بل ويشبها لهلال رمضان قائلا :

بأي هلال من رآ ه أفاد أجرا حين كبير

أي حين شاهد المحبوب كبر فنال الأجر والثواب مثل الصائم الذي يصوم ولكن صوم العاشق صوم هش ضعيف، بمجرد أن يلوح له المحبوب يفطر أي ينسى كل المعاناة ويعود إلى حالة العشق التي كان فيها قبل ذلك ، ولكن الفاضل أراد أن يجعل للمحب بعض المحاولات حتى لو كانت مجرة محاولة ولكنه حاول عكس عادة الشعراء العذريين حيث يقدم هنا صورة للعاشق الذي مل الوعود؛ حيث العمر يجري والموت يقترب قائلا له :

عجل فلي أجل وأنت به تحيء وما يؤخر

وكأن هذا القول هي محاولة من الفاضل أن يغير طبيعة الحب العذري حتى يتجاوز استحقاقات الزمن وفاعليته في الإنسان فالموت مهما طال الوقت قادم لا محالة فعلينا أن نغير طريقة العشق القاسي.

- من سمات شعر الفاضل أنه ينقلنا إلى عوالم غريبة من التصوير فالعقرب لديه من رموز الجمال على الخد؛ حيث يقول :

لست أدري عقارب الأصدقاء برحت أم عقارب الأعداء

قد بدت عقرب بخد حبيب فحكى القلب قلبها في السماء¹

فهو هنا يتساءل في حيرة هل تغلبت عقارب الأصدقاء على عقارب الأعداء، حيث يصور لنا صورة غريبة ، بأن يجعل لنا الأصدقاء مثل الأحياء وكأنهم عقارب فأنت لم تعلم مدى خطورتهم، عكس الأعداء الذين تحسب لهم ألف حساب ولهذا فخطورة الأصدقاء أكبر وأعظم، وهم كعقارب تمتلك خدا جميل كخد الحبيب الذي يحبه الشاعر، وهي صورة غريبة فالعقرب في المخزون العربي هي مكروهة ويرتبط بها الخيانة وعدم الحب ولكن يبدو أن القاضي الفاضل يعطي لها صورة أخرى غير المعتاد فهي تستخدم هنا كما وظفها الشاعر ، فهي عقرب من نوع خاص عقرب بخد حبيب فلفظ العقرب لفظة منفرة تنفر منها النفوس ولا تميل إليها فهي مرتبطة بالأذى ، ولكن عقرب الفاضل بخد حبيب وأنسه ومن هنا جاءت تميل إليها² قائلاً :

يا من على الخدين منه عقرب لا تضرب الخد وقلبي تضرب

ورغم سياق لفظة العقرب التي جاءت في السياق المحبوب إلا أن النقد نظر إلى هذه النظرة المكروهة فجعل هذا البيت مكروه ، والصورة غريبة حيث العقرب مكروه³.

- استعارات القاضي الفاضل تجاري أهل الأندلس في استعاراتهم، حيث استعاراته لم تخرج عن المألوف في الجمال والذوق ، ومن هنا قدم الفاضل لمحات جمالية غاية في الروعة في وصفه للمحبوبة ،

¹ الديوان ، ج2 ، ص 2.

² أبو عبد الله جمال الدين محمد ، المعيار في نقد الأشعار ، مصر: مطبعة الأمانة، 1987م ، ص 27 .

³ عبد العزيز قليقة ، النقد الأدبي في العصر الأيوبي ، القاهرة: دار الفكر العربي، 1991م ، ص 404.

وهي من ضرورات قصيدة الغزل ، وهذه الصفات استمرت في العصور التي تلت الفاضل، حيث صور العقرب بالشيء الغير مستهجن بل المحبوب حيث جاء في شعر الأيوبيين :

لست عقارب خده قلبي لي رشفة من ريقه الدرياقى

لعقرب الصدغ في الأحشاء ضربات وذي الذوائب فوق الخد حيات¹

- يبدأ الفاضل قصيدته على عادة القدماء بالغزل بمظهر من مظاهر الشعر محاكاة للشعر الجاهلي² :

حيث مدح القاضي الفاضل كاتب وعالم ورئيس ديوان الإنشاء، فهي تصور مكانة العلم والعلماء، بل وتعطينا بعد عن حالة اجتماعية وثقافية في ذلك العصر وموقف الناس منها رغم مكانتها المرموقة في هذا المجتمع ، حيث كل عصر من العصور يسوده حساد وكارهي العلم والنور أصحاب الجهل الذين يدافعون عن الالقيمة لتحقيق مآرب خاصة وليس عامة تفيد المجتمع على هذا النحو :

ويا من خسرت القلب إذا رمت وصله ويا ليت لو كانت سلامته ربحا

أطارحها شوقي فيثقل محملا فهل أتقى منها إذا ضعفت طرعا

نسيم رقيق مثل ريق رشفته وجدت لمسراه على كبدي نضجا³

فهو في هذه القصيدة يمدح أبا الفتح ابن قادوس، فهو هنا يقوم بدور الناصح الذي يقوم بدور إيجابي حيث يمدح العاشق بضرورة استمرار العلاقة بينه وبين المحبوبة مقدما صورة مليء بالحب ودلائله والحكمة والوساطة والعقل بالإضافة إلى النصائح التي توجهه، معبرة عن نصائح إنسانية عميقة الخبرة ووجهة النظر، مادحا أستاذه ومدربه مبينا مدى الوفاء بينهما ، ولهذا رسم صورة تبين مدى المكانة الاجتماعية التي كانت له ودوره الثقافي في هذا العصر قائلا :

¹ عبد الحسين الخضر، الشعراء الأيوبيون. دمشق: مطبعة عكرمة، 1993م ، ص 124.

² محمود السرطاوي، نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، عمان، دار البشير، 1990م ، ص 240.

³ الديوان ، ج 1 ، ص 174 – 180.

أبا الفتح يا فتح كل غريبة وكم خاطر فتحته فأبي الفتحا

أبي صفو سيل أن يقر بذروة فبالله لا تحسد على الآجن السفا

ويا قسور الكتاب بدد صفوفهم إذا وشحت كفاك من قلم رمحا¹

فهو كاتب كبير ومن أرباب القلم ، وهو كالسيل المتدفق رغم ما يواجهه من مشكلات وهو أسد الكتاب الذي تحول قلمه رمحا ، وهو هنا يعطي لنا سمات وخصائص قصيدة المدح عنه ؛ حيث بيان كرم الممدوح وشجاعته ، رؤية الممدوح في نظر الآخرين، تنحصر عداوة الممدوح من قبيل الغيرة والحسد، إضافة صفة جديدة على الممدوح وهي بيان دوره الثقافي والعلمي في المجتمع وليس فحسب صفة الفروسية والقيادة ، الترتيب التقليدي للقصيدة الجاهلية المديحية البدء بالغزل ثم الحكمة ثم الدخول في الغرض، فالقاضي الفاضل يندمج مع ممدوحه لدرجة التماهي الذي يسجل لنا أمرا تاريخيا.

أما فخر الفاضل قدم فيها الفخر بأنواع مختلفة ؛ حيث فخر بالقلم وبالعلم وبكتابة الرسائل ، والفخر بمعالي الأخلاق والكرم والشجاعة ، بل ولم يتركه ذاته وجذوره ، وأصوله ومقدرته في الفاعلية والحركة في الحياة على هذا النحو :

قضى نخبه الصوم بعد المطال وأطلق من قيد فتر الهلال

وسكران كرر من سكره زمان على كل عقل ممالي

بما في أسد الغياض وما في جفون ظباء الرمال

فدع ضيقة مثل شد الإسار إلى فرجة مثل حل العقال²

فهو يسرد الأصول التي اعتمد عليها في الفخر ، فهو لا يسأل الآخرين ، بل الآخرون هم الذين يسألونه، وهذا راجع إلى أن القاضي الفاضل كان يمتلك المال لأنه كان يمارس التجارة ولا يعتمد على أدبه حيث كان هو صاحب فاضل على الناس ؛ حيث كان يعطيهم من ماله ؛ حيث كان دخله

¹الديوان ، ج 1 ، ص 181.

²الديوان ج1، ص 342.

السنيوي خمسين ألف مثقال من الذهب ، بالإضافة إلى أموال التجارة ، حيث يتجه إلى الهند والغرب فكانت تجارته كبيرة¹.

بل ويفخر أيضا بأصوله وجذوره ، فهي قمة في الأصل والقمة والشرف تعادل السحاب، فهي عربي لخمى، ويتدرج في الفخر مادحا كتبه التي تمثل الماء الزلال الذي يملأ أرجاء الأرض، وهي سباق أكثر من الرماح والسيوف لتقضي على العدو، أشاد بذلك صلاح الدين ؛ حيث قال لقد فتحت البلاد بقلم الفاضل .

آثاره الأدبية:

كتب القاضي الفاضل في النثر والشعر والنقد، وبالنظر إلى الدراسات الحديثة التي درست أشعار الدول المتتابعة، أو شعر الحروب الصليبية لوحظ أنه هناك نوعا من الإهمال في أشعار القاضي الفاضل، حيث كان أغلب تركيز هذه الدراسات على نثر القاضي الفاضل لا شعره؛ حيث لم وجدت دراسة لم تذكر بيتا شعريا واحدا للقاضي الفاضل² ، وذلك ربما أن القاضي الفاضل لم يذكر بشكل مباشر الحروب الصليبية في شعره، وذكرها في نثره، لكن شعره فيه إشارات وأبيات كثيرة تتحدث عن المعركة مع الصليبيين، في غير موقعة، وهناك دراسة لا تقل عن السابقة ؛ حيث تناولت أدب الحروب الصليبية، فلم تذكر شعرا للقاضي الفاضل ، رغم أنها تناولت أشعارا كثيرة لعدد كبير من الشعراء، وعندما وصلت إلى القاضي الفاضل استشهدت بنثره لا شعره بل وحللت نثره تحليلا أدبيا ونقديا³ ، ثم تأتي الدراسة الثالثة والتي تؤكد على هذا الإهمال الذي يبدو متعمدا لشعر القاضي الفاضل؛ حيث ذكرت أشعارا كثيرة لعدد من شعراء الحروب الصليبية وتجاهلت لشعر القاضي الفاضل وذلك كما تدعي هذه الدراسة أن القاضي الفاضل هو أديب عرف بغير الشعر وغلبت عليه الكتابة لا الشعر⁴، حيث كتب الرسائل الديوانية والإخوانية وضمنها موضوعات مختلفة فالديوانية تناولت أغراضا كثيرة⁽⁵⁾ كالمناشير والعهود والتقاليد والتواقيع

¹ السبكي، طبقات الشافعية ، ص 253 ، 254 .

² عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، عمان، دار البشير، 1995م ، ص 332.

³ عمر عبد الرحمن الساريسي، نصوص من أدب الحروب الصليبية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1984م، ص 181.

⁴ عمر الأسعد، نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة، الأردن: مكتبة المنارة ، 1988م ، ص 8.

⁽⁵⁾ المصدر السابق ، ص 34.

والرسائل الوحدة الإسلامية ورسائل الحروب الصليبية وهي على أربع أضرب رسائل الجهاد و رسائل التهئة بالفتوح ورسائل الاستنجد وأخيرا رسائل السلم والمعاهدات .

أما الرسائل الإخوانية⁽¹⁾ فهي رسائل ذاتية كالتهاني والتعازي والتشوق والشكر واللوم ... إلخ ورسائل موضوعية كالشفاعات والحوائج والوصف والمدح ... إلخ .

والشعر نظمه وكتب في الموشحات وجاء شعره على أغراض كثيرة ؛ حيث كان القاضي الفاضل شاعرا وله ديوان شعري تناول فيه أغراض شتى كالغزل والفخر والرثاء والوصف والخمرة والحكمة والمدح والعتاب والهجاء والشيب والشوق والاعتذار إضافة إلى قليلا من الموشحات وشعره يمتاز بحس أخلاقي خالد يعكس نفسا إنسانية ذات تجربة عميقة⁽²⁾ .

- القدماء وشعره:

لقد أنكر فريق من القدماء شعر القاضي الفاضل حيث يقول عبد القادر الذهبي ت 987 هـ، كما قال ابن كثير ت 773 هـ :

(والعجب أن القاضي الفاضل مع براعته وفصاحته التي لا يداني فيها لا يعرف له قصيدة طويلة طنانة وإنما له ما بين البيت والبيتين والثلاثة في أثناء الرسائل وغيرها)⁽³⁾ .

والناظر إلى هذه القول يجد فيها ظلما تاريخيا للقاضي الفاضل؛ حيث حقق الدكتور أحمد أحمد بدوي ديوانه المكون من جزئين، والذي يحوي قصائد طويلة كثيرة وصلت إلى سبع عشرة قصيدة، مطولة وفي مختلف الأغراض، وتراوحت بين خمسا وثلاثين بيتا وثلاث وتسعين بيتا، قام الباحث بإحصائها بل وترك ما هو أقل من تلك القصائد، وهو كثير، بل ويوجد في الديوان مقطوعات كثيرة صغيرة ، تحتوي على البيت والبيتين كل ذلك ويأتي الذي يلغي دوره الشعري أو يتجاهل هذا الدور حيث يقول القاضي في الحكمة :

ولم أر قرنا يعجز الدهر حربه سوى الشعر، إن الشعر يبقى على الدهر

(1)المصدر السابق ، ص54.

(2)خالد سليمان عيد الدولات، شعر القاضي الفاضل دراسة نصية، رسالة دكتوراه ، الأردن ، 2005 ، ص 23 .

(3) عبد القادر بن محمد النعيمي، المدارس في تاريخ المدارس، بيروت: دار الكتب العلمية ، 1991، 1/ 67 .

تنير جميع الزهر ليلا وتنطفي مع الفجر إلا أنجم الشعر في الفخر¹

وهنا يرى القاضي الفاضل أنه لا يستطيع شيء محاربة الأيام والدهر، فالدهر يقضي على كل شيء ، لكنه لا يستطيع الوقوف أما الشعر، فالشعر يتغلب على الدهر ويقضي عليه ويبقى على الدهر ؛ حيث يظل شامخا مفتخر بنفسه فكل الزهر تنير ليلا وعندما يأتي الفجر تنطفئ إلا نجوم الشعر تستمر ولا تنطفئ.

ويقول ابن الحجة الحموي (ت 837 هـ) حول نظمه:

(كان نظم القاضي الحموي ونثره كفرنسي رهان ولكن نثره أكثر مما نظمه)⁽²⁾ . ويرى الباحث من كلام ابن الحجة أن شعر الفاضل لم يرق إلى مستوى نثره وإن كان الشعر شيئا والنثر شيء آخر، فهو هنا يظلم القاضي الفاضل حيث يختلف الشعر عن النثر في المكونات والبناء بل وكل من النثر والشعر له إحساسه الخاص الذي كان يمتلكه القاضي الفاضل رغم اختلاف التكوين بين الشعر والنثر .

1،1،2. المطلب الثاني: آراء النقاد في أسلوبه وبنائه الفني:

لقد كان الفاضل مكثرا في الشعر وقد خلف ديوانا من الشعر، وتميز شعره بفصاحة الألفاظ وسهولة التركيب مع المتانة ، واضح المعاني ، وكان جل شعره في المدح والغزل والفخر ، كما نظم القاضي الفاضل في فنون أخرى كالوصف والخمر غير أنه لم يتسع فيها كالمدح والغزل⁽³⁾. ومن شعره في الوصف مثلا قوله في الفرش والأرائك والمساندة:

سباط يرى التيجان تھوى للثمة فما هو إلا قبلة من مقبل

إذا نشرت من نقشه لك روضة ركضة بدا فوقها من كفه لك جدول

¹ عبد الرحيم بن علي البيساني القاضي الفاضل، ديوان القاضي الفاضل ، تحقيق أحمد بدوي، القاهرة: دار المعرفة، 1961م ، ص 468.

⁽²⁾ ابن حجة الحموي، أبو بكر بن محمد ، ثمرات الأوراق، صححه: أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، مصر: مكتبة الخانجي، 1971م، ص 133.

⁽³⁾ عمر فروخ، الأدب العربي في المشرق، دار العلم، بيروت، د.ت، ص 411 .

وأفضل أجزاء الجسوم رؤوسها وأرجلها في وطء بسطك أفضل⁽¹⁾

وقال في وصف الخمر:

لها ممن تصف على الشرب أربع وواحد لولا سماحتها تكفي

سرور إلى قلب وبتر إلى يد ونور إلى عين وعطر إلى أنف

ولما رأينا ياسمين حبا بها مددنا يمين القطف قيل يد الرشف⁽²⁾

ومن بين الخصائص التي تميز بها غزل القاضي الفاضل توظيف وابتكار بعض الصور في شعره مثل صور الحية والعقرب التي لا يسأم من ترديدها⁽³⁾. ومن أمثلة ذلك قوله:

لم أخف حية على الخد تسعى لا ولا عقربا عليه يدب

مت ضيفا في الرق رق خليلي مطلته بالورود والورود نهب

ومن الصور التي أولها فيها القاضي الفاضل في غزله قصة آدم وهبوطه من الجنة مثل قوله:

يا من سفكت دموعي له والنفس في الزفرات قيدت نفس

عاهدتم وتناسيتم عهودكم فالله عاهد قدم أدمى فنسي⁽⁴⁾

أما مدحه فكان في الصفات العامة الشائعة من كرم وحلم وعلم وشجاعة وتقوى وحسن تدبير وعقل ومن الأبيات التي نظمها في باب المدح:

قال يمدح السلطان صلح الدين في معركة حطين:

تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمان واليمن⁽¹⁾

(1) هادية راغب دجاني القاضي الفاضل عبد الرحيم ، رسالة قدمت إلى الدائرة العربية للحصول على درجة أستاذ علوم، بيروت: الجامعة الأمريكية، 1961م ، ص 117.

(2) الصفدي ، 18 / 221 .

(3) دجاني ، القاضي الفاضل عبد الرحيم ، ص 118.

(4) دجاني ، القاضي الفاضل عبد الرحيم ، ص 118 – 199.

وقال أيضا في مدحه لصلاح الدين ومواسيا له على حصار عكا:

نحن الذين علو لم يبطروا يوم الهياج وإن علوا لم يبطروا⁽²⁾

وقال أيضا:

فإن ذنبي أن أحسن مطلبي إساءة ففي سوء القضاء لي العذر⁽³⁾

كما نظم القاضي الفاضل أبياتا من الشعر ليعبر عن أشواقه وحنينه مثل الأبيات التي نظمها ليعبر عن شوقه إلى مصر والنيل عندما وصل إلى الفرات في خدمة السلطان صلاح الدين قال:

بالله قل لليل عني أتني لم أشف من ماء الفرات غليلا

ونيل الفؤاد فإنه لي شاهد أن كان جفني بالدموع بخيلا

يا قلب كم خلفت ثم بثينة وأعيد صبرك أن يكون جميلا⁽⁴⁾

وقال أيضا في تشوقه إلى بعض إخوانه وأصحابه:

فيا رب أن البين أضحت صروفه علي ومالي من معين فكن معي

على قرب عذ إلى وبعد أحبتي وأمواه أجفاني ونيران أضلعي

وقال أيضا:

لو زاراني منك خيال هاجر لهدته في ظلماته أنوارها

والله ما نسيت نفسي حلاوتها فكيف أذكر أني اليوم أذكرها؟⁽⁵⁾

(1) أبو شامة، الروضتين، 3 / 300 .

(2) أبو شامة، الروضتين، 4 / 103 .

(3) النويري، نهاية الأرب، 8 / 18 .

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3 / 160؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 18 / 219 .

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، 1 / 274 .

ويعتبر القاضي الفاضل أول من أظهر التورية في الشعر⁽¹⁾ وفي توريته قال:

فيا ليل أن توليفها يدا تجدي لها ذاكرة شاكرا

وأن قلت نعرفه كافرا أقل لا ولكم نعم فاجرا

وقد استخدم كلمة كافرا على سبيل التورية في الحكم ضد الإيمان والكفر بمعنى الستر وفي كلمة كافر تورية فلمعنى القريب مأخوذ من الفجور والانبعاث في المعاصي⁽²⁾.

كما وصف القاضي الفاضل في شعره معاني مستمدة من ثقافته الأصلية وأكثر شيء تأثر به القاضي الفاضل هو القرآن الكريم ومن بعض تأثره بالقرآن:

إذا زلزلت بالعادات منازل لا هجنكم صباحا ولا رعنكم صباحا

استمده من قوله تعالى من سورة العاديات⁽³⁾:

- كما اشتهر القاضي الفاضل باعتناؤه بالجناس والطباق ومراعاة النظير فمن جناسه قوله :

من أين أنت ومن يدرك من أنا الجدد خلقي من أخلاقك العبد

ما جئت مبعوثة بل جئت باعثة هي ولا خاطر طرفي في اهتم منبعث

حيث حاول الفاضل أن يجانس جناس اشتياق بين مبعوثة وباعثة وكلمة البعث وقوله:

لم يطمع الليل مني أن أرق له ينسى جناياته الناسي على الناس

حيث جانس بين كلمتي ناسي والناس جناسا تاما⁽⁴⁾

(1) محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس، أبو البركات، بدائع الزهور ووقائع الدهور، د.م: مطابع الشعر، 1960م ، 1/ 60.

(2) دجاني ، القاضي الفاضل، ص 127.

(3) دجاني ، القاضي الفاضل، ص 122.

(4) دجاني ، القاضي الفاضل ، ص 129.

وقيل : إن العزيز هوى قنية شغلت عن مصالحه فأمره أبوه بتركها فشق ذلك عليه ضاق صدره ولم يجتمع به فسيرت له مع بعض الخدم كرة عنبر فكسرها فوجد فيها زر ذهب فلم يعرف المعنى وعرف القاضي الفاضل المعنى فنظم بيتين⁽¹⁾: وأرسلها إليه قال:

أهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر خفي اللحم

فالزر في العنبر في معناها زر هكذا متخفيا في الظلام⁽²⁾

وهذا يدل على قدرة القاضي الفاضل في فهم المعاني ونظمها في شكل الشعر وهذا يسمى التلاعب بالألفاظ والمعاني:

وقد برع القاضي الفاضل أيضا فيما يعرف بالמושحات وقد كانت له موشحة وهي:

من لي بدر كله قد جار قلبي كله

فهل ترى نتعزز والعزى في الحب ذلة

قد جدد الله سعدا للمك من آل سعد

بأنفس الخلق تفدي وأن أبوى كنت وحدي

سيوفه ليس تصدى ولا تقر يغمد⁽³⁾

ويرى الباحث أنه يفهم من هذه النصوص ومن القراءة في أبيات القاضي الفاضل يستنتج بأنه برع في الشعر كما برع في النثر حيث استطاع أن يجري التطورات الحادثة في عصره من خلال اهتمامه بالمحسنات البديعية والجناس وهي السمة البارزة التي طغت على الشعر في هذا العصر وهي التثنية اللفظي وقد استطاع أن يوظفها في شعره أحسن توظيف ليس بنفس درجة النثر ويشهد للقاضي الفاضل أنه أول من أدخل التورية في الشعر ، وأيضا غلب موروثه الثقافي والحضاري والديني على كتاباته سواء

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 131، الصفدي، الوافي، 18/ 211.

(2) المصدر السابق.

(3) الصفدي، الوافي، 18/ 230.

على مستوى الشعر والنثر وذلك من خلال توظيفه آيات القرآن في شعره وهذا يدل على مقدرته الأدبية وتحكمه في الألفاظ.

1,2. المبحث الثاني: شعره في النقد الحديث، ويتكون من مطلبين:

1,2,1. المطلب الأول: آراء النقاد المحدثين في موضوعه الشعري:

تعددت الآراء حول موضوع القاضي الفاضل الشعري، وذلك من خلال الآراء الآتية في شعره:

- (أن القاضي الفاضل له مائتين وخمسون ألف بيت من الشعر)⁽¹⁾ .
- (أن شعره على أنها قطرة من بحر زاخر ولمعة من معترض برق ما له من آخر ولو دون نظمه وجمع لكان أجزاء كثيرة في سائر الأفانين ولقيل لمجموعه : هذا ديوان بل مجموعة دواوين)⁽²⁾ .
- (أن معاني الفاضل هي التي ترقص لها القلوب وتطرب لها الألباب ويهجم قبوله على النفوس من غير ولا بواب)⁽³⁾ .
- (أن القاضي الفاضل كان له نظم لكنه لم يرق إلى مرتبة رسائله)⁽⁴⁾ .
- (القاضي الفاضل له ديوان شعر وشعره ضعيف لا قيمة له على الإطلاق)⁽⁵⁾ . وهو حكم سريع بجانب لتأني والتروي والإنصاف.
- (إن من يرجع إلى ديوان القاضي الفاضل لا يجد فيه إلى شاعرا من الطبقة الثانية، ومن الصعب أن نقرنه بالشعراء الممتازين في العصر الفاطمي لا من حيث روحه وقلة الدعابة عنده بل من حيث شعره العام إذا نرى فيه آثار التكلف والتلفيق واضحة وكان يتصنع الجناس كثيرا كما كان يتصنع لضروب

(1) الأدب في العصر الأيوبي ص 198.

(2) الأدب في العصر الأيوبي ص 126 .

(3) النويري، صبح الأعشى 2 / 198 .

(4) الأدب في العصر الأيوبي ص 207 ، 208 .

(5) محمد سيد كيلاي، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، القاهرة: نخضة مصر، 1949م. 163 .

الطباق والتصوير الأخرى من تصوير وأيا كان ف شعر القاضي الفاضل واضح فيه التكلف والتصنع لألوان البديع ومصطلحات العلوم وهو شعر في الجملة مصنوع وقلما نجد فيه شعورا أو جمالا (1).

- (كان من حق القاضي الفاضل علينا ألا ندخله مع شعراء عصره لقصوره عن اللحاق بهم في مضمار فنهم ولكن ما حيلتنا إن كان القدماء من البلاغيين جعلوا له مذهبا سار على نهجه الشعراء الذين كانوا حوله فأنا نجد قصائد ومقطوعات تظهر تكلفه وبعده عن الطبع فحرصه على التلاعب بالزينة كان أكثر من حرصه على تصوير عواطفه وأهوائه (2).

- (كان القاضي الفاضل مكثر من الشعر والنثر وقد بلغ فيهما من الشعر وقد بلغ فيهما ذروة التكلف والصناعة المعنوية والصناعة اللفظية ثم صرف جميع اهتمامه إلى تحسين الأسلوب والتلاعب بالمعاني والألفاظ والاستطراد من معنى إلى آخر عن طريق التعبير البلاغي أما شعره فيما عدا ذلك فهو فصيح الألفاظ سهل التراكيب مع المتانة واضح المعاني وله مدح جيد و وفخر وغزل وإخوانيات (3).

- (إذا كنت أنت من الذين يحبون التلاعب بالألفاظ والتراكيب كان القاضي عندك سيد الناظمين أما إذا كانت من الذين يقدرون قيمة الفكر المبدع في الأدب والتعبير المنطقي في الأسلوب كان أثر ما أنتجه القاضي الفاضل من شعر لغوا أو قريبا من اللغو (4).

- (وإذا رأينا أن شعراء أمثال القاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن مطروح والبهاء زهير قد شغلوا بالزخرف اللفظي والتوليد العقلي العقيم وإن الصلة كانت تنقطع ما بينهم وبين حياة الجماهير وكادت تنقطع ما بينهم وبين جيشان العاطفة وعمق الإحسان ونفاذ البصيرة وروعة الاستكشاف النفسي الجمالي (5).

(1) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص 492 - 493.

(2) محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، د.م: مؤسسة هنداوي، 2017م، ص 212.

(3) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي، 1981م، 2/ 411 .

(4) المرجع السابق، ص 412 .

(5) عبد العزيز الأهواني، ابن سناء الملك ، جروس برس، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986 ص 11 .

- (إنما هان الشعر على الناس هذا الهوان لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائع المحركة جملة فصرفوا النقص إلى الصنعة والنقص بالحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم ولأن طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضا⁽¹⁾).

- (لقد عرف القاضي بمهارته في فن الكتابة، دون فن الشعر، فإننا نجد له قصائد ومقطوعات، تظهر تكلفه وبعده عن الطبع، فحرصه على التلاعب بالزينة البديعية كان أكثر من حرصه على تصوير عواطفه وأهوائه، ومع ذلك كله فإننا نرى له بعض مقطوعات لا نشك في صدورها من فنان ماهر في صناعة الشعر⁽²⁾.

ومن الواضح هنا أن هذا الكلام فيه اعتراف للقاضي الفاضل بمقدرته على الشعر، وفنه الذي جاء من طرف فنان ماهر، يعرف جمال التعبير من خلال سبك اللفظ الجميل وتحميله المعنى الواسع المعبر.

والقاضي الفاضل من رواد تطور مدرسة التورية في القرنين السادس والسابع الهجريين، ويعد من أعلام الكتاب الذين كانوا شعراء مجيدين⁽³⁾، وإذا غمز في شعره واتهم بالضعف أو قلة الروح فيها كما قال بعضهم أو أنه لم يذكر أو يصور الحروب الصليبية، كما قال آخرون، فالقاضي الفاضل تناول المعركة في مواضع كثيرة ولكن بشكل أقل تفصيلاً كما في الرسائل، وهذا يعني أنه شارك الآخرين، ولم يتأخر عن الركب، فالرجل يؤمن بخلود الشعر، فهو يعتبر الشعر فناً جميلاً وخالداً يجب أن ينقل مشاعر الإنسان وتجارب لا معاركه وحروبه، فرجل تناول مقاومة الاحتلال نثراً، ونجح في ذلك وترك الشعر للشعر، للفن للجمال، لحياة الإنسان وتجارب الإنسانية ومعاناته، وما تركيزه على حشد كم هائل، من الأسماء والرموز الإنسانية، في شعره إلا دليل وعي عميق للتجربة الإنسانية على هذه الأرض، والتي مازال عليها ما يستحق الحياة⁽⁴⁾.

(1) حازم بن محمد بن حسن، أبو الحسن، منهاج البلغاء، د.م: دار الكتب الشرقية، 1966م، ص 124-125.

(2) محمد كامل حسين، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر العربي، 1957م، ص 212.

(3) عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دمشق: المكتبة العباسية، ط2، 1973م، ص 402.

(4) المصدر نفسه، ص 657.

- وكان القاضي الفاضل يؤمن بمجد الشعر ، وخلود ويرى الدهر عاجزا عن القضاء عليه، وعد الفاضل من مفاخره، أنه ذو شعر خالد على مر الزمن¹ .

وشعره يمتاز كما يمتاز نثره، يحب الصناعة اللفظية ، فهو لا يكاد يتركها ، إذا تأتى له استخدامها، ولهذه الناحية من خصائص شعره، أعجب رجال الصناعة به ، ومثلوا الكثير من ألوانها بشعره مسجلين له أعظم تقدير وإعجاب، أما الذين لا تعنيهم هذه الصناعة ، فلا يرتفعون في تقدير شعره إلى هذا المستوى من التقدير ، حيث كان لعصره أثر كبير في شعره، وإذا كان هذا الشعر الذي بين أيدينا لا يتحدث إلا قليلا عن الحروب الصليبية ، التي دارت في عهد صلاح الدين وكان الفاضل وزيره، فرما تحدث عنها فيما ضاع من شعره²، بالإضافة إلى مخالطته للكتاب من جميع الأصقاع ، أو كان أشبع تلك الرغبة، فيما كتب من رسائل كانت لها قيمة كبيرة في عصره، لأن رسائله أتت على كل ما يدور بخلدته تجاه هذه الحرب الظالمة، والاحتلال لأرض أمة العرب والمسلمين في تلك الفترة التاريخية من تاريخ المنطقة والعالم بذلك ترك الشعر لأغراض إنسانية وحياتية أخرى³ .

ويرى الباحث أن المتتبع لشعر القاضي والباحث فيه يجد أنه اهتم بما اهتمام بالصنعة وديوانه لا يخلو من القصائد التي بان عليه التكلف في الصياغة وذلك كون الشاعر قد قصد قصده وأصبح البديع دليلا على بلاغة الأديب وشعرية الشاعر والإتيان بالبديع مهما كان نوعه تكلف ولكن الشعراء يختلفون في هذا بحسب طاقاتهم الشعرية وأذواقهم الأدبية .

فإكتار القاضي الفاضل منه كان مقصودا لذاته لأنه دليل الشاعرية والتمكن والاعتدال فذلك نجد شعراء العصر الأيوبي بما فيهم عميدهم ورأس مدرستهم القاضي قد سار على نفس الطريق وأصبح هو يمثل المذهب بعينه مما حدا بالشعراء الآخرين أن يقتفوا آثاره في طريق الصنعة ويبدو أن البديع بمعناه الواسع كان معروفا عن العربي والشعراء خاصة ولهذا قال الجاحظ : والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغنهم كل لغة وأريت على كل إنسان⁽⁴⁾ .

¹ أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية، د.م: دار نضمة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979 ص 359 .

² أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي، ط 24 ، القاهرة: دار نضمة مصر للطباعة ، ص 248.

³ ديوان القاضي الفاضل ، ج 1 ، ص د.

⁽⁴⁾ الجاحظ ، البيان والتبيين، ص 55 - 56 .

بل وذكر عددا من الشعراء ممن أكثر منه كالراعي في العصر الأموي وبشار والعتابي في العصر العباسي

إن ظهور البديع وإقبال الشعراء عليه كان مرتبطا بعوامل الحضارة وتقدم الزمن فكان مصاحبا لما انتشر وتعمق من وسائلها كالأطعمة والعمران والألبسة ولهذا فقد أخذ في الانتشار في العصر العباسي منذ بشار حتى وإذا جاء مسلم وأولع فيه وقالوا أنه أفسد به الشعر ثن أعقبه أبو تمام فألقى بثقله اللغوي والفني عليه وجاء بالشيء الكثير منه وما كان القرن الرابع الهجري يطلع حتى أولع به الشعراء أو الكتاب وأصبح وكدهم وهجيرهم ثم جعله من جعل بعد هذا القرن الغاية التي يرجون والهدف الذي يسعون إليه فنقل نتاجاتهم الشعرية والنثرية وكان القاضي الفاضل إمام مدرسة خاصة لهذا اللون الذي عرف فيه بنثره وشعره ولم تكن صناعة القاضي سمجة عقيمة لا حياة فيها وإنما كان كالوشي يزيد الشعر تألقا وتأنقا والدليل على هذا أن هناك غير واحد ممن تحدث عن البديع في عصره قد تمثل بشيء غير قليل من شعره البديعي هذا .

وعلى الرغم من إكثاره البديع وتصيده له إلا أن هذا لم يؤثر على أن تنطوي أشعاره على معالجة الأحاسيس الصادقة والعواطف الثائرة نعم أنه غلفها بما حسن من ألوان البديع وجهد في صياغتها صياغة فنية .

ومجتمع القاضي يستسيغ هذا اللون من البديع ويلذ ولو لم يكن كذلك لما أقبل أبنائه على الإصغاء إليه وإلى استظهاره والإعجاب به وبقائله والأدب وليد البيئة محاك لما فيها من وسائل وحاجات ولعل هذا هو الدافع الحقيقي لإكثار الشعراء من ألوان البديع والإغراق فيه فصنعة القاضي كانت إذن وليدة التطور الحضاري ورغبة الناس وميوههم إلى هذا النوع من الأدب الذي يمكن أن يحسب نوعا من تطوير الشعر أو تجديده أما الإكثار من ألوان البديع في هذا العصر ومنهم القاضي الفاضل فهو لا يمكن أن يكون في منأى عن التكلف والثقل في بعض جوانبه غير أن ما جاء به القاضي الفاضل لم يكن كما ذهب إليه بعض الأدباء كله ثقيلًا متكلفًا وإنما هو يحتوي على كثير من أمارات الطبع والاقتدار حتى ليتمكن الزعم بأنه لا يقل عن شعر أولئك الكبار المولعين بهذا اللون من الأدب البديعي .

- موضوعات شعره :

والقاضي الفاضل ليست له قصائد طوال وإنما بعض المقتطعات التي تضمنت رسائله⁽¹⁾.

وبالنظر إلى الديون نجد عنده قصائد طوال فالقاضي قد أنشد في كليهما وأبدع وأحسن الإبداع ولم يكن في إنجازهم إهمام أو في إطالته ملل أو ثقل .

قال القاضي الفاضل في كل الفنون والأغراض الشعرية المتعارف عليه في عصره وما تورث من شعر العرب فلم يقتصر على غرض دون آخر وإنما قال في المدح الذي كان نسبته كبيرة بالقياس إلى سواه كما قال في الغزل والفخر والعتاب والشكوى والثناء والوصف وفي الشيب والخمرات والحكمة وإبداع في شعر الرسائل فقد دمج في رسائله أنواعا منها تخص الموضوعات الذي كتب فيه من شوق ومدح واعتذار وعتاب وفخر .

فلم يخرج من الدائرة التي تورثت في الأغراض والفنون الشعرية حتى المستحدث منها مثل الدوبيت والموشح ولكن نجد أن الديون قد خلا من وصف المعارك الحربية التي حفل عصر الشاعر بها غير أنه لم يكن بعيدا عن هذا كله بل وغنما تداخلت الحماسة ووصف الجيش في بعض القصائد التي مدح بها الخلفاء والوزراء ومن ثم صلاح الدين الذين كان ملازما له في بعض الأحيان عندما كان في بلاد الشام وبمعنى آخر لم نجد له قصيدة قائمة بذاتها تدور حول الحرب والقتال كالذي لدى سواه من شعراء عصره الذين كانوا ملازمين لصلاح الدين والذين وفدوا عليه ومن قصائده التي تشير إلى مثل هذا تلك التي صرح بها من كانت له نعمة أو فضل عليه ولاسيما التي وجهها إلى الوزراء أو التي ذكر فيها ما جرى بين المسلمين والإفرنج⁽²⁾ .

- المدح :

وأول ما يلفت النظر من موضوعاته هو المديح من حيث الكثرة في عدد القصائد والمقطوعات ؛ حيث بلغ مجموع الأبيات التي قالها في هذا الموضوع ستة وثلاثين وتسعمائة وألف بيت من الشعر وجاء في الديوان بالترتيب بعد الغزل فقد كان مكثرا من الكتابة في هذا الفن وخاص به ما كانت لهم علاقة به يستحقه الثناء وتوزعت أماديحه على الذين كان لهم الفضل عليه وما أسبغه عليه من نعمة وفضل وعاش

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 25 / 13 .

(2) الدولات ، شعر القاضي الفاضل دراسة نصية ، ص 70 .

في كنفهم معززا مكرما وهم على الأغلب خلفاء وسلاطين ووزراء ورجال من عليّة القوم الذين كانت له صلة بهم من كتاب وقواد وأصدقاء بحكم ما يشغله من مناصب وقتها⁽¹⁾.

ومدائحه لم تكن للاستعطاف أو لطلب حاجة يبغيها وإنما كانت لمن كان يعمل معه من خلفاء وسلاطين ووزراء وكتاب فكان مدحه تعبيرا عما يجول في صدره فكان يطلب الجاه لا المال وأدخر الصور والمبالغات في مدائحه لبيان الود والثناء والعرفان لهم . وقد اختلفت مقدمات قصائد من حيث الطول وما يضعه من أبيات قبل دخوله في الغرض المقصود وقد تصلح هذه المقدمات إلى قصائد منفردة من حيث الغرض الذي طرّقه وأغلب هذه المقدمات خاصة في الغزل والشكوى والعتاب تحتوي على صفات ليست حقيقية بل تدل على الممدوح نفسه ، كما تخلو بعض القصائد من التصريح ومن قصائده التي بلغت 72 بيتا قالها لوزير يعاتبه مخاطبا إياه بلفظ المذكر منها :

وحوشي أن يقال لها عتايي ومن ذا يسمع الصم الدعاء

وهبك نسيت كل يد لقصدي على العليا فهل تنسى الثناء

ثم يصل إلى الغرض الأساس بعد مقدمة من 16 بيتا واصفا إياه بأفضل الصفات معتمدة على صورة قديمة موظفة مثل التشبيه وأيضا يتناول في قصيدته أبيات للحكمة قائلا :

ولو سقط التفاضل في عقول لكان الناس كلهم سواء

دع الكذابين في قول وفعل فإن الرأي ما سكن الرواء⁽²⁾

وفي معرض مدحه لصلاح الدين لم يجعل المدح صفات توارثت وقد أعطى صورة جديدة في ذلك معتمدا على فتح القدس فبنى قصيدة على ذلك قائلا :

وليس بمعدود جميلك عنده ولا كان لولا ذا الجميل بمعدود

وأنتك بحر هادم لشواهي وما أنت سيل قاذف للجاميد⁽¹⁾

(1) المصدر السابق ، ص 71.

(2) المصدر السابق ، ص 73 .

وفي مدحه توجه إلى القيم الإسلامية في محاربة أعداء الدين من الفرنج فكان مدحه اليد الطولى في رد الأعداء يتمثل في وصفهم بالمجاهدين حيث يقول :

حين يبدو في أنامله فيه نار وهو الطوفان
يتداعى إذ دعوت به حين يلقي الشرك أوثان⁽²⁾

- الغزل :

اهتم به القاضي الفاضل حتى أصبح من الأغراض المهمة في قصائده ولم يكن غزله في مستوى المجون والرذيلة والتهتك رغم أنه يوجد في ديوانه قصائد غزل بلفظ المذكر الذي من دواعيه احتجاب المرأة التي هي العنصر الأساسي في قوله⁽³⁾ ، بل لعل خفة مخاطبة المذكر أسهل وأخف من مخاطبة المؤنث⁽⁴⁾ فكان من ذوي الوفاق والالتزام والتقوى فلم ينغمر في غمار تيار الملذات بل عبر في قصائده عن عواطفه النبيلة الصادقة وحبه العفيف فهو لم يذكر اسم امرأة حقيقية أو مجاز على عادة الشعراء الغزليين فغزله يحكي عن الهجر وعدم الوصال ، ومن صور غزله صورة العذول فقد أشبعه وصفا قائلاً :

ولم تنكر الشكوى وأمر مريضها إليك فلا تبخل وحاشاك بالطب
جرى الدم دمعا في حروب بني الهوى ويكفي الدم الجاري دليلا على الحب⁽⁵⁾

كما يقوئخ القاضي غزله بألوان من البديع قائلاً:

وبدر بأفلاك الخواطر طالع وغصن بأوراق العذار وريق
لئن بت في بحر من الفكر ساجا فإنسان عيني في الدموع غريق⁽⁶⁾

(1) الديوان، ص 255.

(2) الديوان، ص 374 .

(3) الأدب في العصر الأيوبي، ص 239 .

(4) نجيب محمد، تاريخ الشعر العربي ، القاهرة :مطبعة دار الكتب المصرية، 1950 ، 3 / 172 .

(5) الديوان، ص 19 .

(6) الديوان، ص 134 .

وفي غزل الفاضل من الصورة القديمة للمحبيب الذي كان بدرا وتشبيهه بالمحبيب قائلاً :

إن قلت يحكون النجوم صدقت يحكون نورا

أو قلت يحكون الطباء فلم أرد إلا النفورا⁽¹⁾

واعتمد القاضي الفاضل على لغة حلوة جميلة تتمثل بالألفاظ الرشيقة التي تنساب في القلوب قبل انسيابها في الأذان معززة بجرس لفظي يتناغم مع تلك الألفاظ معتمداً على مجزوء الكامل قائلاً :

أأخاف أن تبقى همو مي في هواك وما بقيت

وعلى الحقيقة لو أذن ت بأن أموت إذا حييت⁽²⁾

- الفخر :

الفاضل في حديثه عن الفخر لا يكتفي بموضوع واحد، بل يتحدث عن عدة موضوعات في قصائده الفخرية ، حيث يفتخر فيها بالأمور العالية والرفيعة التي تمنح صاحبها المجد والعز، ويتحدث أيضاً عن كيفية الوصول إليها والمقدرة التي يستطيع من خلالها تجاوز حالة الفقر والعوز والخنوع، بل يتطرق إلى الفضائل والأهداف التي يسعى الإنسان إليها في الحياة فالفاضل يفخر بكل شيء يوصل إلى العلياء والمجد ويتجاوز الفقر والتنازل والضعف ، فإذا كان الشعر وسيلة لهذا فلماذا لا يفخر به نفسه قائلاً:

وبالأشعار تعرف قائلها كما حدثت عن نجر بنجر

سبقت بها، فقد صارت لقوم محارب والذي بعدي مصل³

(1) الديون، ص 95 .

(2) الديوان، ص 41 .

³ الديون ج2، ص 342.

فالفاضل هنا يحدث ويلقي علينا نصيحة من خلال قوله عن الشعر أن الأشعار تدل على قائلها ومدى تأدبهم، حيث الكلام كله يدل على القائل ومدى ثقافته وأدبه ومدى صحة أفكاره، فحال القول كله والشعر بصفة خاصة يدل على من قاله هكذا الولد من فعله يدل على أصله وجذره، هكذا الشعر يظهر لك حال الذي ينظمه ، بل ومدى ما يشتمل عليه من أفكار ورؤى، من عمق ودقة أو إسفاف وضعف، فالفاضل يفتخر بأنه من الرعيل الأول لقول الشعر الذي يكتب له الخلود، فهو إمام في ذلك المجال والكل يتبعه، فمكانه مكان المحارب المقدس الذي يلتبس منه الآخرون الأصول التي يتبعونها فيه ، كأنهم مصلون وراءه في ذلك المحارب.

ويرى الباحث أن القاضي الفاضل ربما يبالغ في هذه الصورة في نظمه الشعر، حيث يضع نفسه من الرعيل الأول الذي يتبعه الآخرون، فالفاضل من الشعراء الخالدين ، ولكنه لم يبلغ المكانة التي تجعله يضع نفسه في درجة الإمام والذي أول من تفتق بالشعر العربي، وإلا فأين كل من فحول الشعراء الجاهليين، وصدر الإسلام والفرزدق وجريز والأخطل وشعراء الأندلس، بل ثم أين المتنبّي وأبو تمام والبحري ولو تتبعنا الأمر لوجد المجال حافل بالأوائل ولو قلنا غير ذلك نكون بخسنا هؤلاء أشياءهم ، فلنقل أن الفاضل من الشعراء الخالدين وهم كثيرون لكنه ليس من الرعيل الأول الذي يتبع كأول من تفتق بشعر الفخر في لسان العربي ولكن ربما القراءة الثانية والمتأنية لهذين البيتين تدل من بعيد أن الفاضل ربما يعاني من عدم الاعتراف بشعريته القوية فهو صادق فيما يقوله من شعر وإن لم يكن من الرعيل الأول فيه ؛ حيث يقول :

وهذا الغرض قليل عنده ربما لقلة ما يفخر بها الشجاعة والبطولة في ساحة الأعداء فافتخر بعلو الهمة والتحدي للوهن والخور قائلا :

يا دهر لا تحسبن أن النجوم على بعد على همّي إني أطلبها

يشبهون الليالي بالبحار لنا وفي عجائبها عندي عجائبها

وليلة قد دنت مني غياهبها بقدر ما بعدت عني كواكبها

فلا نجوم الليالي بت أحسبها ولا الليالي على همها أحاسبها¹

فالقاضي الفاضل يغالب ويقاوم ويتحدى الليالي وما تشتمل عليه من ظلام شديد بل والبعد الذي تميزت بها كواكبها التي ساعدت على شدة ما بها من ظلام ، حيث يتمتع بشدة البأس والثبات لا يهتز رغم هذا التحدي العنيف منها له، فهو لا يعد النجوم مثل الذي تعترئها مشكلة فيجلس طوال الليل يعد النجوم عله يجد حلا له، ويجلس ناظرا لها يحاسبها ويحاسب الزمن على ما ألم بها من مصائب وبلايا؛ فهو الذي يتحمل مسؤولية حياته وذاته لا يتهرب منها لغيره مثلما يفعل الضعفاء، فهو لا يستسلم ولا يخاف بل يواجه كل ما يعترضه بقوة وأنفة خاصة الزمن وتقلباته قائلا : لا تظن أن النجوم العوالي والأمور العالية هي بعيدة عني وعن همتي وعزيمتي ، فأنا أتمتع بالجد في الحصول عليها وسوف أصل إليها حتما يوم ما وفي نهاية مطافي باحثا عنها .

وهنا يرى الباحث أن لغة الفاضل في فخره تتسم بصلاية والتحدي والعناد الناتج عن الأقوياء وليس الضعفاء المستسلمين لما ألم بهم، حيث يبين شدة القوة التي بها والحزم والعناد في قوله : أنهم لو شبهوا وصوروا الليالي الظلماء بالبحار في العمق والقوة حتى يخاف الشاعر لما في البحار من عوالم خفية أبدعها الله فيها ، فهذا لا يؤثر على توازنه وتحديه لها ، فهو الذي يملك الكثير من العجائب التي ترهب وتملأ الذعر والخوف منه، فهو هنا يمتلك قدرا كبيرا من الاعتزاز والثقة في النفس التي هي تتعدى المألوف لدى الناس .

- الرثاء:

¹ الديوان، ص 386.

حيث توزعت مراثيه بين أهله وأحبائه ومن كان له فضل عليه ومن عمل معهم أو تحت أمرتهم من سلاطين وملوك ووزراء والأماكن التي تركت أثر في نفسه، و القاضي الفاضل يتحدث عن الموت في رثائه بشكل فلسفي آخذ حيث يقول:

الموت سيف لغريم له دين ولا يقضيه إلا الرقاب

يبقى الندى بعدك مقدار ما يبقى نضير الروض بعد السحاب

تنقشع السحب ويذوي على آثارها النبات، ويبقى التراب¹

فالقاضي الفاضل هنا وبنظرة فاحصة نجده يقدم الموت بصورة قوية، فيصوره بالسيف الذي يقف على رقبة المدين له، وهنا يشير إلى حقيقة كلنا يعلمها ألا وهي أن الموت حق لا بد أن ندوqe جميعا في نهاية سعيينا في هذه الحياة الدنيا، فالموت حق ودين على الرؤوس، فيقدمه بصورة مخيفة تجعل الإنسان عندما يفكر فيه للحظات يهدأ من هذا السعي المتكالب على هذه الحياة الفانية، فالموت هو الأمر الوحيد الذي يذوقه كل الكائنات ويقهرها جميعا لا بد منه لا بد منه ولهذا فهو مخيف لمجرد التفكير فيه ، فهو يحول كل شيء من بداية جميلة ساحرة إلى نهاية ترعب لمجرد التفكير فيها ؛ حيث يأتي وكل شيء يتراقص الندى والسحاب والأمطار، والأرض مخضرة ، والروض جميل ، وفجأة يتغير كل شيء حيث تذوب السحب، ويضيع العشب والنبات ويمكث التراب، حيث نهاية الكائنات الحية التراب .

ويرى الباحث أن القاضي الفاضل في فلسفته عن الموت كان أصدق تعبيراً عنه فشعره هنا يعد خالدا في فهمه للإنسان وحياته ونهايته الحتمية ، فصرع الإنسان أمام الموت وحربه ضده هو شيء من العبث المطلق، وفقدان الأمل في الحياة المستمرة ،

¹ الديوان ج2، ص 390.

فالحياة حتما سوف تنتهي حتما سوف تذبل حتما سوف يأتيه الموت بكل ما فيها من كائن حي¹ .

والغريب في رثائه قلة ما رثى به صلاح الدين حيث لا يوجد فالديوان لا يوجد به إلا مقطوعة من ثلاثة أبيات قائلا فيها⁽²⁾ :

مات ومات الناس من بعده وما أمارت الشكر إحسانه

دنياه يا دنياه ما أنت في ظلمك ذا الإنسان إنسانه

- الاعتذار :

إن اعتذار القاضي الفاضل قليل، حيث بالنظر إلى ديوانه لم نعثر على اعتذاره إلا في غاية القلة، وذلك في نص يحتوي على خمسة أبيات، حيث يندر في الديوان ندرة غريب تكاد لا توجد فيها إلا هذه الأبيات على الإطلاق رغم كثرة موضوعات الاعتذار عامة ؛ حيث هناك اعتذار للمحبوب أو الأهل أو للقبيلة أو للحاكم أو للتقصير عامة في أي أمر حدث ، فبالنظر إلى ديوان القاضي الفاضل نجده في الجانب الخاص بالاعتذار يعتذر في هذه الأبيات الضحلة إلى المحبوبة ولكن اعتذاره يتميز بلغة الكتابة والكتاب التي تختلف عن لغة الشعر التي تحمل من الدلالات الكثيرة؛ حيث يقول في خمسة أبيات فقط للاعتذار في ديوانه:

لا تحسبني للعهد مضيا حفطي لودك مذهب لا يذهب

عفت الترسل طامعا أن نلتقي فأبى الزمان يبيح لي ما أطلب

وتأخرت كتبي فقلت : أعاتب في ذاك أنت علي أم متعب

¹ كمال أبو ديب، الرؤى المنقعة ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، ص 213 بتصرف كبير.

⁽²⁾الديوان، ص 440 .

لا عتب أخشاه لقطع كتابكم واسمع، فعذري بعده لا يعتب

مهما وجدتكم في الضمير ممثلاً أبداً تناجيني إلى من أكتب¹

وبنظر فاحصة إلى هذه الأبيات الاعتذارية الوحيدة في الديوان الخاص بالفاضل نلاحظ ونستشف منها مدى اللغة التي يتناولها الفاضل في اعتذاره؛ حيث يتناول هذا الأمر بلغة الكتاب في هذا الاعتذار للمحبة وإبداء حبه لها ، ويواري فيه بلفظ التورية بالمذكر، وهذا متبع لدى الشعراء ؛ حيث يقول مخاطباً المحبة:

أيتها المحبوبة أنا لا أضيع العهود والود بل أحفظ الود وليس هذا تصنعاً مني بل هو مبدأ وأسلوب حياتي كلها، فكثرة كتابي إليك كرهتها، حيث أود المقابلة والتواصل عن طريق لقائك ويعاندي الزمان في ذلك.

ولهذه الكراهية في الكثرة بالكتاب جعلت كتبي إليك تتأخر عليكم ، فأن كنت أنا أقتل عتاباً أو أعاتب فعلاً للعلاقة التي بيننا من محبة فهذا اعتذاري لك ، فأنت بصورة دائمة في مخيلتي وضميري وقريبة عني، فهو هنا يريد أن يتجدد بصفة مستمر الحب الذي بينها وبينه، فيريدها قريب منه باللقاء وبعيدة عنه بالكتابة، ونلاحظ نوعية هذا الود والحب عند القاضي الفاضل ، فهو حب ليس فاحش وصريح بل هو حب متعفف عذري الذي من سماته تقوية الحب بالبعد وتلاشيهِ في كثرة القريب.

- الهجاء:

تميز هجاؤه بالسخرية الممزوجة بالفكاهة والتندر والنقد والتركيز على العيوب الموروثة والمكتسبة وماله علاقة بالعيوب الخلقية وهو هجاء معتدل اللهجة خال من الإسفاف والبذاءة دون جرح الكرامة والعرض ناتجة عن تربية سليمة قائلاً:

أؤدي إليكم من ضمير رسالة من الود لا أبغى لديكم بها أجراً

¹ الديوان ج 2 ، ص 517.

وإن تسمعوها خلوة فشاكية

وإن تسمعوها في الملا فاسمعوا الشكرا⁽¹⁾

- الوصف :

لقد تميزت قصيدة الوصف عند القاضي الفاضل بالقصر الشديد؛ حيث هذه القصيدة لم تتجاوز عددا من المقطوعات القصيرة والقصائد الصغيرة ، حيث يوجد منه عدد من النصوص التي تدخل في مجال الوصف عنده ، هذه النصوص لا تقل عن بيتين، وعندما نطالع الوصف عنده بدقة نجد أن هذه النصوص التي لا تقل عن بيتين لا تزيد عن خمس أبيات فهي صغيرة بشكل كبير خاصة مع غرض مثل الوصف يحتاج الكثير من الحركة واللون وصورة فيما يقوم القاضي بوصفه ، هذه هو ما وجد في ديوانه من وصف ، حيث وصفه رغم قصره فهو يدخل في الغرض مباشرة بدون أي تفاصيل تحمله المزيد من الأبيات والصورة والحركة ، فهو وصف يدور حول الموضوع المراد وصفه بصورة مباشرة ، فهو في ديوانه ينثر عدة أوصاف قصيرة مباشرة حيث يصف الأطفال وصغر السن بما يرمز إليه هذا الصغير من الحياة المستمرة ، والسعادة والفرح والسرور، والبدايات الجميلة للمستقبل الباهر الواعد، فالقاضي الفاضل أثر فيه حياة الصغير بكل ما فيها من بداية جديدة لحياة مستقبلية واعدة ، وحياة حاضرة يسيطر عليها لهو الطفولة ، وبراعتها التي تملأها السعادة واللهو ، والإقبال على الحياة وديمومتها، فيقول وهو مشرباً بهذه الحياة :

طفل كفاه الدهر دارا له كأنما القلب له قالب

كيوسف الحسن وقلبي له سجن ومن ثم له صاحب

وهو بعيني وهو إنسانها وهي له من خارج حاجب

ضاق له ضيق عناقي له فلم يسع ما قاله العائب¹

⁽¹⁾ الديوان، ص 451 .

فهو يصف طفلا في جماله كجمال يوسف الصديق أتاه الله من الجمال ما شاء فهو يمثل رمزا أساسيا من رموز الجمال في المخزون العربي والإسلامي، قلب الفاضل أصبح قلبا وسكنا له من كثرة الحب لهذا الطفل الذي يمتلئ من البراءة ما شاء، فقلبه تحول إلى مكان لا يشارك الطفل فيه أحد، فالفاضل يقذف بنا إلى سجن يوسف؛ حيث هذا السجن الذي كان بسبب ما رزقه الله ليوسف من جمال أوقعه في الكثير من المصائب والمحن والتي أشهرها وهو غرام زليخة امرأة العزيز التي شغفها يوسف حبًا ، هذا الحب أدخل يوسف سجنًا رأى فيه الكثير من الناس، لكن سجن هذا الطفل يختلف عن سجن يوسف، فهو سجن له صفات خاصة يأتي في مقدمته عند الفاضل أنه سجن لا يشاركه فيه أحد من الناس فكأنه سجن ليس له صاحب، سجن من الحب له القلب هو الذي يملكه ، فهذا الطفل هو عين الفاضل فهي كأنها حاجب الفاضل الذي يتمتع هذا الطفل بحمايته، و الفاضل يذكر العين كرمز يجر إلى المتابعة المستمرة لهذا الطفل تلك المتابعة التي تدل على العناية به والمحافظة عليه بشدة .

وهنا يرى الباحث أن وصف الفاضل كان وصفا خارجيا لحدود الشكل والجمال ، ولكنه خرج عن حدود هذا الوصف وتعداه إلى الحالة المعنوية التي يمر بها هذا الطفل، فأسرف فيها فجاء الوصف وصفا لحالته المعنوية أكثر، وهذا أن باح لنا بشيء، فالبوح هنا يعبر عن شدة التعلق به والمحبة والإحسان والمشاعر التي جاءت صادقة فطغت على الشكل فحسب.

وينتقل القاضي الفاضل إلى وصف جديد في ديوانه ، حيث يجنح إلى شيء مادي يقوم بوصفه بشكل يدل على تمكنه من هذا الوصف، بل وأنه يملك ناصية الأمر فيها ، من حيث اللغة والأوصاف وإن كانت قليلة لكنها معبرة ، فيصف شمعة قائلاً:

¹ الديوان ج 2 ، ص 441.

بكت مثلما أبكي ، وفاضت دموعها ولم تفش أسراراً كفيض دموعي

إشارة مظلوم، وعبرة عاشق وغصة مأسور، ولون مروع

أقامت إلى بحر الظلام أسنة فلم يلقها إلا بخلع دروع

عجبت لها والليل مقتول نورها وما منه بل منها مسيل نجيع¹

وبالنظرة الأولى لهذا الوصف، نلاحظ منه أن الفاضل يصف شيئاً مادياً ويربطه بحاله، وكأنه يصف الحال التي عليها هو ، فقد بكت الشمعة مثلما بكى القاضي الفاضل ، وهي تبكي وتخرج من عينها بدلاً من الدموع أخرج شمعا سائلاً ، بينما هو يذرف ويخرج من عينيه الدموع، ولكن هذه الشمعة الباكية لم تنتشر سره في البكاء، مثلها تماماً مثل دموعه التي لم تنتشر حزنه وسره في البكاء، وكأنه نفس الشاعر ودموعه وشمعته تجمعته حالة وجدانية واحدة تدل على المشاركة في الوجد والحزن والألم ، الكل واحد الدموع والشمعة والشاعر، وبالنظر إلى هذه المشاركة الملفتة للنظر كيف تتشارك الدموع والشمعة مع الشاعر وهما لا يمتلكان المشاعر والأحاسيس التي أخص الله بها الشاعر، ولكن القاضي الفاضل يمتلك من الخيال الفضفاض والذي يمتلئ خصوبة يخلع عليهما هذه المشاعر وتلك الأحاسيس، ومن هنا يصف حالات خاصة بها ، ناتجة عن انفعالاته شخصياً منتقلاً بين عدة انفعالات ألمت به ، ومر هو بها ، فمن حالة الظلم التي يشير بها إلى الإنسان المظلوم في قوله إشارة مظلوم إلى حالة الخوف المترتبة على الظلم الذي ألم به والتي أيضاً يعبر بها عن الخوف الذي يلم بالإنسان ويعيش معه ، إلى دموع العشق الذي وقع فيه الشاعر ، بل الإنسان عامة حيث يعشق ولا يستجيب المعشوق له فيقع في دائرة الحزن الشديد حيث يقول وعبرة عاشق، ثم يعبر عن حالته الانفعالية وحالة

¹ الديوان ج 2 ، ص 443 .

جل إنسان يخض للأسر والحبس والأحداث المروعة التي تلم بأي إنسان حيث يقول
وغصة مأسور، ولون مروع.

ويستمر الفاضل في وصفه لهذه الشمعة التي جعلها تشاركه في أحزانه ودموعه
وأسراره ، فهي تخرج من شعاعها الضوئي أسنة جعلته يتعجب عجا كبيرا لحالها ،
فهي جعلت الليل من هذا الشعاع الضوئي وكأنه مقتول من نورها قتلا ليس بالقتل
الحقيقي، بل هو قتل لا يسيل منه الدماء، فهي التي تسيل منها الدموع حيث دم
النجيع، حيث ينزف الدم من القاتل لا المقتول حيث الدم ينزف من الشمعة التي
أضاعت حياتها كلها من أجل الآخرين ، وكأن الفاضل يتحدث بحالة الشمعة عن
حاله هو الذي ينزف كحالها فهو أضاع نفسه في مساعدة الآخرين وفي نهاية
المطاف ينزل من أجلهم .

والفاضل حتى يربط بين البطولة والسيف والقلم بين بطولة صلاح الدين الذي يرمز
له بالبطولة ، والكاتب الذي فني عمره جله في مساعدة هذه البطولة المتمثلة في
صلاح الدين لإنقاذ الأمة من خطر الأعداء الدهم يربط بين بطولة صلاح الدين
البطل المغوار، وبين قلم الكاتب المحنك والمساعد له في القضاء على أعدائه وأعداء
الأمة هو بالقلم وصلاح الدين بالسيف في مشاركة فعالة لمحاربة الأعداء المحدقة
بالأمة قائلا :

ماضيات على الدوام دوامي هي في النصر نجدة الإسلام

في يمين السلطان، إن جردتها أشبهتا صواعق في غمام

تنثر الهمام كالحروف فما أشبه هذى السيوف بالأقلام

في محاريب حربه البيض صلت وركوع الظبا سجود الهام¹

وهنا ينقلنا القاضي الفاضل نقلة ليست جديدة، حيث يصف السيف وما يقوم به صاحبه فهو من خلال وصفه يصف ويخذ البطل والبطولة، فهذا السيف دائما تقطر منه الدماء، فهي فحالة استعداد دائم ؛ حيث تقطر رقاب الأعداء باستمرار تمثل بذلك تباشير النصر والفوز والغلبة على الأعداء، والمحافظة على الإسلام في الزود ضد الأعداء حتى يرفرف علمه على الدنيا كلها خاصة الأعداء المحتلين أراضيهم، فالسيف يخرج كالصاعقة التي إذا قام السلطان بخرجه من الغمد المخصص له في مواجهة الأعداء، فهو يقطع رؤوس الأعداء فتلقى على الأرض، وهو هنا يماثل حالة السيف البتار الذي يتطاير به رؤوس الأعداء كحالة القلم الذي به يتناثر الحروف على الأوراق الخاصة بالكتابة كي يحمس الجنود باستعمال هذا السيف البتار، فالسلطان يقاتل ويقاوم ويقطع الرؤوس في نظام مثلما يكتب القلم الحروف على الورق وهي منظمة في سطور منظمة على الورق.

ويرى الباحث أن القاضي الفاضل أحسن في تشبيه السيف بالقلم فكل بطل مغوار يحارب في ميدانه ، ويؤدي دوره في الزود والدفاع عن الوطن بطريقته وبوسيلته، فصلاح الدين وسيلته السيف البتار القاطع لرقاب العدو، والفاضل الكتاب الذي يمتلك ناصية اللغة بحروفها وبلاغتها وسيلته القلم الذي ينشر الحروف البتارة في سطور في الأوراق لحماس والقوة والدافعية، فهو يجعل حروب بطله كمحاريب المساجد، ويجعل سيفه مثل حد القوس كراكم على رقاب العدو، فكانت رؤوس الأعداء ساجدة على الأرض بشكل يدل على العزيمة والموت والذل للمحتل المغتصب.

¹ الديوان ج 2 ، ص 444.

ولقد تعددت الأشياء التي وصفها من مادية ومعنوية فوصف الشمس قائلاً:

والشمس من بين الأرائك قد حكت دنانيرا تفر من البنان⁽¹⁾

وهو يصف ليلة انتشر فيها البرق وتساقط المطر بعد رعد شديد وما تراءى من نجوم باهتة في صحن
سما متلونة تلون الحرباء وهذه صورة جديدة وهي مبتدعات القاضي الفاضل قائلاً:

ليلة للبروق فيها جروح وغيوث تبكي ورعد ينوح

وكأن السماء حرباء جسمي وعليها النجوم حب مقيح⁽²⁾

ولقد استعان القاضي الفاضل بالأدوات الكتابية الخاصة به ، بل واستعان بتوظيف صوره وتشبيهاته
بالبديع الذي أولع به لدرجة كبيرة فمن جناساته قائلاً:

تنثر الهام كالحروف فما أشبه هذى الحروف بالأقلام

في محارب حربيه البيض وصلت وسجود الظبا سجود الهام⁽³⁾

- الشيب :

وتكلم فيه القاضي الفاضل مبينا أثره على حياته وأنه علامة على الفناء وأدرجه في الوصف والغزل فهو
يكبح جماع اللهو والعبث ويجعل الإنسان ينطلق إلى العمل الصالح والرزانة في حركاته وسكناته قائلاً :

- الخمريات في شعره :

كثر الحديث عن الخمر في عصر القاضي الفاضل فأصبح الكلام في الخمر علامة من علامات الظرف
ولونا من ألوان الترف الثقافي والدعابة الأدبية⁽⁴⁾ . فوصفها الشاعر مرة كأنه أبو نواس في مجونه ومرة يحذر
الناس منه وضرورة الابتعاد عنها:

(1) الديوان، 4 / 253 .

(2) الديوان، ص 488 .

(3) الديوان، ص 494 .

(4) تاريخ الشعر العربي، 3 / 97 .

قام يظفي لهيها بالتهاب بعروس قد نقطت بالحباب

عجبا بالمدام نار أذابت كأسها فالحباب عالي المذاب⁽¹⁾

وله صور جميلة وتخيالات بدیعة في الخمر :

لها ممن تصفو على الشرب أربع وواحدة لولا سماحتها تكفي

ولما رأينا ياسمين حباها مددنا يمين القطف قبل يد الرشف⁽²⁾

وفي شعره عن الخمر ما يشبه القصة فتحدث عن مجلس الخمر وحوار القصة قائلا:

وسادة قد سادت مجالسهم ماء الذي أطعمت كرومهم

أي لسان لمن يذمهم وأي قوم لمن يرومهم⁽³⁾

ويرى الباحث أن القاضي الفاضل تأثر بشعر أبي نواس في الخمر كما تأثر به شعراء الخمر.

2،2،1. المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني.

لم يترك القاضي الفاضل غرضا من الأغراض التي طرقها إلا وقد نظم فيه على الطويل وجاء هذا الوزن ملائما لذلك الغرض ومتواشجا معه كأنه يحاكيه ويتلون معه باللون المناسب .

البناء الصوتي لشعر القاضي الفاضل يحاكي المعاني الشعرية التي انطوى عليها فوقع حروف ألفاظه المتكررة وجرس أصواته يعادل تعبير النظام التعبيري أو المضمون فمثلا قوله :

باح الهوى بك واستراحا وأباحنا لك واستباحا

كم قرة في نظرة ملأت جوارحنا جراحا⁽¹⁾

⁽¹⁾ الديوان، ص 506 .

⁽²⁾ الديوان، ص 509 .

⁽³⁾ الديوان، ص 513 .

أول ما يصلنا من نغم حروف هذه المقطوعة هو جرس حرف الحاء والحاء من الأحرف الهموسة فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه⁽²⁾ .

يمثل تكرار اللفظة في شعر القاضي الفاضل بارزة تكاد تشكل لحة بارزة لشعره ولعل هناك أسباب كثيرة دفعته استعذابه لجرس حروفه فهو يكررها للتشويق إليها والتلذذ بها ولعل ابن رشيق قد أشار إلى هذه الغاية حين تكلم عن التكرار الذي يحصل في الشعر قائلا : ولا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة التشويق والاستعذاب إذا كان في تغزل أو نسيب⁽³⁾ . وكان يلذ للقاضي الفاضل أن يكرر الألفاظ لأنه لا يجد في تلفظها حلاوة كقوله في موضوع الغزل:

ومن عجب إني أحن إليهم وأسأل عنهم من أرى وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي⁽⁴⁾

لفظة هم ألحت على الشاعر بالظهور لقيمتها التعبيرية فأشاعت جوا نغميا وعملت على تقوية الرنة النغمية فالشاعر يصرح أنه يحن إليهم ويسأل عنهم وتطلبهم عينه ويشتاق لهم قلبه وربما يأتي التكرار للتوجع والتأسي لذكرها وخاصة في الرثاء فمثلا قوله :

تبكي عليك عيون أنت قرّتها وما بكى الحق باكي البحر بالخلج

في كل شدة دهر لم تنزل فرجا فأعظم الله أجر الناس في الفرج⁽⁵⁾

وهذه الأبيات من مقطوعة رثاء الشاعر لرجل عزيز عليه غيبه التراب عنه فترك موته فاجعة على نفس الشاعر وحرجا في أمره فكان التفجع والتوجع يفرض على الشاعر أن يكرر مفردات تلح عليه بالظهور مثل تكرار مفردة التراب والبحر ورجح الباكي وتبكي فتكرار هذه الألفاظ أعطى الأبيات تنغيما حزينا ،

(1) الديوان، ص 45 .

(2) سيبويه: الكتاب، 4 / 434 .

(3) الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، بيروت: دار الجيل، 1981م، 2 / 73 .

(4) الديوان، ص 605 .

(5) الديوان، ص 423 .

بل ويكرر القاضي الفاضل تراكيب بعينها مثلما قال الجرجاني أنه الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرد بل لمعنى الألفاظ التي تليها ⁽¹⁾ فمثلا يقول القاضي الفاضل :

وخذا عقودا ولا منة إذا قلت للبحر خذا عقودا⁽²⁾

فالشاعر يريد أن يصرف ذهن المتلقي لأهمية شعره الذي يجلب للممدوح الخلود فكرر هذا التركيب خوذا عقودا لأن الشاعر يريد أن يركز عليه حيث جاء به في أول البيت ثم وروده في آخر البيت حتى يحدث تقطيعا موسيقيا جديدا .

وتميز عصر القاضي الفاضل بالبديع فاعتبر القاضي الفاضل في شعره الجناس كركن أساسي في شعره لدرجة يمكن القول معها بأنه من النادر وجود شعر للقاضي الفاضل بلا جناس فهو إذا صح التعبير العمود الفقري في شعره وإن كان أنه لم يصرف فيه للدرجة التي تؤدي إلى المشقة والعنت فقوله يصف سيوف ممدوحه :

ماضيات على الدوام دوامي هي في النصر نجد الإسلام⁽³⁾

فلفظ دوامي عملت ترجيعا للجرس الموسيقي لمفردة دوام وإعادة لصداها الفني ولأن على المتلقي ما أشاه هذا الجناس من تقوية لنغم هذا البيت الموسيقي .

ومثل أيضا :

سل العفو يا عاذلي مذنبا فإن الهوى قد نبا مذنبا⁽⁴⁾

فإن هذا البيت فيه ترجيع يلون البيت بإيقاع موسيقي متميز الذي أدى إليه هو الجناس مذنبا — قد نبا — مذنبا .

⁽¹⁾ الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 90 .

⁽²⁾ الديوان ، ص 261 .

⁽³⁾ الديوان ، ص 494 .

⁽⁴⁾ الديوان ، ص 14 .

وحتى يخرق القاضي الفاضل الرتبة في الموسيقى ويبعث في البيت موسيقى جديدة عن طريق حسن التقسيم والتناظر فمثلا قوله:

يجود بلا حد ويجري بلا مدى فيعيا به منا المعقب والعقب⁽¹⁾

إذ قسم صدر هذا البيت إلى عبارتين متماثلتين صوتيا هما : يجود بلا حد ويجري بلا مدى.

ومثال التناظر قوله :

زمانك ثوب ، والسعود طراز وملكك حق ، والملوك مجاز⁽²⁾

حيث ناظر القاضي الفاضل بين صدر البيت وعجزه فعبارة زمانك ثوب في أول الشطر الأول متساوية ومتناظرة مع عبارة ملكك حق في أول الشطر الثاني ، وهكذا عبارة والسعود طراز في نهاية الشطر الأول مع عبارة والملوك مجاز في نهاية الشطر الثاني وذلك في الوزن والتركيب .

ولقد مال المجتمع العربي في العصر العباسي إلى التصنع في كل شيء حتى الأدب وسائر القاضي الفاضل ذلك فمالته لغته إلى الصنع وأسلوبه إلى البديع مما إلى الاهتمام بالمبالغ باللفظ دون المعنى⁽³⁾ .

الأمر الذي جعل القاضي الفاضل يهتم بالمستوى التركيبي فالنص الشعري عند القاضي الفاضل لم يكن يختلف عن النصوص الشعرية عند النصوص الشعرية العباسية قد يكون الاختلاف في اللغة وطريقة استخدامه إلى الوسائل البلاغية والبديعية فالشاعر يطرح رموزه من خلال القصيدة فإذا نظرنا إلى هذه الأبيات من شعر القاضي الفاضل قصيدته التي يرثي فيها بني رزيك والتي يقول فيها :

نلاحظ أن لوحة الافتتاح جزء لا يتجزأ من أو هي المضمون ذاته ملثما بقناع آخر.

ولقد سائر القاضي الفاضل السنن البنائية للقصيدة العربية الموروثة حيث تبع النظام البنائي الموروث بل برع القاضي الفاضل في مسايرة هذه الأنظمة والخضوع لسننها البنائية على نحو بارع ، ومنها :

⁽¹⁾ الديوان ، ص 241 .

⁽²⁾ الديوان ، ص 499 .

⁽³⁾ عبد اللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2000م ، ص 108 – 109 .

حسن المطلع أو براعته أو براعة الاستهلال حيث اعتبر الشاعر الذي يبرع فيها شاعرا متمكنا وفذاً حيث برع القاضي الفاضل وأظهر براعة فائقة في هذا السنة البنائية حتى قيل عنه قاضي الصناعة وفاضلها والمتأخر الذي لم يتقدم عليه بغير الزمان أوائلها⁽¹⁾ ومن هذا استهلاله :

زار الصباح فكيف حالك يا دجي قم فاستدم بفرعه أو فالنجا⁽²⁾

بل من أمثلة براعته وحسن استهلاله :

كم يهتك الدمع سرا كنت استره ويمحل الجفن خدا باتيمطره⁽³⁾

والقاضي الفاضل مطالعة في الغالب مصرعة فمثلا :

يا غزالا له السيف حجاب من فؤادي أضعاف تلك الحجب⁽⁴⁾

بل تميز القاضي الفاضل بحسن التخلص وهو لأنه أبدع فيه وأجاد إيجاد تامة وجدنا كتب البلاغة تعتمد على شعره اعتماد كبير كمثل لحسن التخلص وهذا واضح في قصيدته التي مدح فيها الخليفة الفاطمي والتي مطلعها :

ترى لحنيقي أو حنين الحمائم جرت فحكت دمعي دموع الغمام⁽⁵⁾

فهو يحسن التخلص من غرض إلى غرض آخر فهو مثلا يحسن التخلص من هذه الغرض إلى غرض المدح:

فإن فؤادي بعدكم قد فطمته عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم

وحسن الخاتمة من الأمور التي اهتم بها الشعراء حيث آخر بيت هو الذي يبقى في أسماع الشعراء وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال فلا يحسن السكون على غيره⁽¹⁾.

(1) الحموي، خزنة الأدب، ص 5 .

(2) الديوان، ص 231 .

(3) الديوان، ص 93 .

(4) الديوان، ص 39 .

(5) الحموي، خزنة الأدب ، ص 153؛ الديوان، ص 350 .

ولأهمية الخاتمة أجاد القاضي الفاضل إجاد تامة حيث جود نهايات قصائده قائلا مثلا :

إذا ما كفى المرء الورى هم خوفهم كفى الله ذاك المرء ما يتخوف⁽²⁾

ولم يكتف القاضي الفاضل بذلك في قصيدته بل فكان يقف على موضوع معين فيقول فيه حتى يحيط به ويستفرغ كل معانيه على سبيل المثال قوله:

وقاك الله من غلب الرجال وصان حماك من غضب الليالي

ودامت مبتدا فكر الأماني ذراك ومنتهي شد الرحال

دم يهدي الهداية منك رأي عرفنا منه إضلال الضلال

سلاح الرأي من جل ودق لديك فمن عوال أو نبال⁽³⁾

والقاضي الفاضل تجربته الشعرية لا تتعدى مجموعات قصيرة لا تتعدى ستة أبيات يكون الباعث عليها غالبا موقف معين وهذا شائع عند القاضي الفاضل فمثلا قوله:

ألست ترى يوم يوم طل ودين الكؤوس على الشرب حل

فإن طل فيه دم للسحاب فقل في دم الكرم لم لا تطل

فهات فإن الهموم الحروب فنازل هموم بكأس بطل

وأوقع على وتر الغناء حديث التواقيع والمستغل⁽⁴⁾

ولقد اعتنى القاضي الفاضل بتركيب البيت الشعر تركيبا قويا لدرجة جعلته لا يهتم أحيانا عن مضمون هذا البيت ومستواه الدلالي ولقد اهتم القاضي الفاضل بهذا التركيب من خلال وسائل تعبيرية معينة يأتي في مقدمتها التقديم والتأخير في البيت وذلك لأنه يعطي للبيت مرونة في توليد الجمل والخلق الشعري

(1) الحموي، خزنة الأدب 490 .

(2) الديوان، ص 401 .

(3) الديوان، ص 339 .

(4) الديوان، ص 510 .

حيث تتخطى النسق المؤلف في تركيب الجملة في اللغة العربية ولد قام القاضي الفاضل بذلك في شعره كثيرا فمثلا قوله :

على نفسه بخل الباخل فيظلم أن ذمه السائل

أيبخل عنها ويجد علي ك لقد جهل الآمال الجاهل

وما هو ذاخر ما في يديه ولكن إلى غيره حامل

فبشرأي قد صحت الكيمياء بأني إلى بابه واصل⁽¹⁾

فهنا نلاحظ أنه قدم الجار والمجرور على نفسه على الجملة الفعلية بخل الباخل التي كان من حقها التقديم لأنها عمدة في الكلام ولكن الشاعر أرد أن يقوم بتصريح هذه المقطوعة التي جاءت على حرف الروي اللام المضمومة لهذا آخر الباخل حتى تكون سببا في تصريح مطلع المقطوعة ومن هنا تقابلها في البيت الآخر لفظة السائل

وآخر لفظة حاملة في البيت الثالث على غيره ومن التركيب الطبيعي للجملة هو تأخر الجار والمجرور على غيره في الجملة إلى نهاية الكلام ولكن لأنه يحتاج لفظة حامل في آخر الكلام آخرها وقدم الجار والمجرور إلى غيره. ونفس الكلام نجدها في تأخير واصل وتقديم إلى بابه.

بل لم يكتف القاضي الفاضل بفكر التقديم والتأخير في شعره بل تطرق ذلك في الاعتناء بتركيب البيت بفكرة الاعتراض الإيجابي الذي يضيف معنى جديدا للبيت يريد الشاعر ولا يستطيع توصيله إلا من خلال الاعتراض وذلك مثل قوله :

وأبلي وإن لم يبيل حبي فإنه كعهذك لم يشمت به الدهر باليا⁽²⁾

فكعهذك من قبيل الاعتراض الإيجابي وليس الحشو فالشاعر أن أن يعبر عنه حبه وكيف مازال هذا الحب في قلبه راسخا ثابتا لم يتزعزع من مرور الزمن من خلال صورة تشبيهية اعترضت الكلام.

(1) الديوان، ص 466 .

(2) الديوان، ص 384 .

وليس كل اعتراضات القاضي الفاضل اعتراضات إيجابية يحتاج إليها المعنى فهناك اعتراضات فرضت عليه وهي من قبيل الحشو الذي جاء بسبب أوزانه الطويلة حتى يستكمل تفعيلاته الطويلة للوصول إلى القافية التي تتوازن مع هذه الأوزان الطويلة على هذا النحو في قوله:

الأرض واسعة - نعم - لكنهم ملكوا علينا نبتها والمعدنا⁽¹⁾

فكلمة نعم التي اعترضت الكلام لم تضيف الجديد هنا اللهم إلا مراعاة للأوزان الشعرية.

ولقد اتجه القاضي الفاضل في شعر إلى الحذف من قبيل التدوير والتضمين وذلك على سبيل المثال في قوله :

وتأمل مني رجعة بعد هذه وهيئات من يثني الرواجع بعدما⁽²⁾

وبالنظر في هذا البيت نجد أن الشاعر كان يريد أن يقول من يثني الرواجع بعد ما امتلأت فحذف الجملة الأخيرة امتلأت لتحقيق الإثارة عند المتلقي وإحداث مفاجأة لديه وباللجوء إلى بنية غير متوقعة .

ومثالا آخر على حذفه فقوله :

أقفر من أحيائهم وادي القرى وعمرت من أمواتهم وادي الكرى⁽³⁾

وبالنظر إلى البيت نجد الشاعر حذف أداة النداء يا وادي القرى حتى يضفي على معنى البيت دلالة إضافية فوجود حرف النداء يشير إلى وجود فاصل بين الشاعر والشيء الذي يناديه سواء على المستوى الزمني أو المكاني فأراد الشاعر التوحد بينه وبين المنادى فحذف هذا الحرف الذي يحول بينه وبين المنادى الذي يناديه، ومن هنا تميز القاضي الفاضل بالحذف في شعره بشكل ملحوظ.

ويعتمد القاضي الفاضل في شعره على الصورة الذهنية حيث يشارك المتلقي في وضعه فمثلا قوله :

صاحب هذا القصر كم قبلت وقدرة القادر في هدمه

⁽¹⁾ الديوان، ص 415 .

⁽²⁾ الديوان، ص 470 .

⁽³⁾ الديوان، ص 420 .

مساحته أمس وكم عظما أعظم منها في بناء السما

فبالنظر إلى هذين البيتين نجد أن الصورة هنا هي تداعيات ذهنية تحتم على المتلقي أن يسترجع الحالة التي رسمها الشاعر في عظيم البناء الذي كان وما تحول إليه من خراب .

- ميز الفاضل بين العشق الشريف والدعارة وارتكاب الفواحش والرزائل في عصره باسم الحب عن طريق القوادين ، ويبدو أن القواد هو نفسه الشيطان أو أن الشيطان ينفذ أعماله من خلال القوادين الأمر الذي جعل القاضي الفاضل إلى تناول ذلك من خلال رمز الشيطان ورمز القواد في شعره نتيجة لكثرة هذه الأمور في عصره، فالفاضل يريد أن يتحده عن الحب العفيف الطاهر لا تدخله الشيطان ، ولا ضغوط القوادين وسلوكهم المرفوض¹ على هذا النحو في شعره :

مالك يا إبليس من خلفنا تطلبنا بالماء والزاد

أمس من الجنة أخرجتنا بحجة من ذلك الوادي

واليوم قد عادت إلى الجنة من وجنات ذات إيقاد

تريد أن تهبطنا ثانيا إلى متى أنت بمرصاد

- من الملاحظ في شعر الفاضل أن الخمر له دور في غزله، فهي التي تذكي نار الغرام، في قلبه وتظهره نصبه وتعبه ومعاناته معبرا عن ذلك قائلا:

شربت فأذكي الشرب نار عنائي دموعي وتغريد الحمام غنائي

رددت على العذال في اجتهادهم وفي مذهب العشاق قلت برائي²

- الإنسان العربي وهو بفطرته ذو عاطفة قوية ، وإحساس مرهف ، وشعور رقيق وخيال دافق، امتاز بحبه لوطنه، فتمسك به واستبسل في الدفاع عنه، وحن إليه، بل وعبر عن ذلك بنصوص أدبية رائعة مؤثرة هكذا فعل الفاضل¹ .

¹ محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية ، ص 159.

² الديوان ، ج 2 ، ص 2.

- تختلف نظر الفاضل إلى الشيب عن نظر أبي تمام والمتنبي ؛ حيث يرى المتنبي الشيب حيث حاول إثبات حقيقة هامة في حياة الإنسان، وهي أن شيبه يعود إلى هموم الزمن لا إلى وطأة الكبر، فالمشيب ينطوي على وجه حسن، لما يشير إليه من عمق دفين وحكمة².

أما المتنبي فإنه يحكي من خلال الشيب اعتداده بنفسه معبرا عن عدم جزعه من الردى لأنه اعتاد الصبر على قهر المعاناة، ومع ذلك يرى حلول الشيب رمزا إلى الموت³.

والقاضي الفاضل تختلف نظرتة إلى الشيب عنهما فهو يربطه بالكتابة والشعر ؛ حيث ينظر إلى الشيب على أنه شخص يخاطبه ، بل ويطلب الود منه ، حيث يحمل الزمن مسؤولية الشيب، أي أن الشيب استحقاق لمراحل محددة من الزمن لا بد من وصولها في نهاية المطاف، وبالرغم من هذه المقدرة الفائقة في الكتابة لم تشفع له ، قائلا :

أقبل نحوي يا مشيب مخاطبا وتذهب عني يا شباب مغاضبا

كفاني ما متعب قبل بصاحب سوى صاحب لم يسمه القلب صاحبا

وبيضاء لا يصفو ضمير لأبيض إذا ما عني العاني بأبيض شائبا⁴

- نظرا للظروف الحياتية التي عاشها الفاضل من حسد وغيرة وكيد من طرف مبغضيه، وما كابده في العمل والحل والترحال، ومتابعة الأحوال السياسية والعسكرية، كل ذلك دفعه أن يخلد هذه الأحداث واللحظات ، في قصائد أقرب ما تكون إلى شعر المطولات، والتي تعددت فيها الأغراض، إضافة إلى المقطوعات القصيرة، السريعة التي صورت جانب من المعاناة ، لقد كانت لغة العتاب والشكوى ، حالات لا بد من رصدها وتدوينها ، فكما ضمنها نثره، ضمنها أيضا في شعره، والناظر في قصائد العتاب والشكوى ، يلاحظ مدى طول النفس الشعري عنده، في هذا الجانب فقد شغلت حيزا كبيرا من الجزء الثاني في ديوانه، وهذا الكم يحمل في طياته ، حجم وضخامة المعاناة عند الفاضل، وهو إلى حد

¹ محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن العربي حتى نهاية العصر الأموي، دبي: دار القلم، ط2 ، 1989م، ص 43.

² عصام قصبجي ، سوسن لباييدي، مجلة بحوث جامعة حلب، سلسلة الآداب، عدد 36 ، 1999م، ص 55.

³ المصدر نفسه ، ص 63.

⁴ الديوان ، ج 2 ، ص 446.

يشبه ما حصل للمتنبّي، في حله وترحاله، وما صدم به عند رأى قيم المجتمع الملتوية، ومع تبع ذلك من معاناة للناس والحكام¹.

- كان القاضي الفاضل يعجبه الشعر الرقيق، والشعر الرقيق يعبر عن مكنونات الذات الإنسانية من فرح وحزن بشكل واضح وشفاف، شعر يخاطب الوجدان، في الفرح والحزن، والفرق والموت، وغير ذلك وكما كان الفاضل إنساناً رقيقاً في إظهار حجم الفاجعة وتصعدها، لتعكس صدق المشاعر الإنسانية، تجاه فراق الأحبة، وهل هناك فراق أكبر من فراق الموت².

- وأخلاق الفاضل ودوافعه في هجائه خصومه، فمثلاً عندما هجا ابن عنين الفاضل، لم يستطع وهو شاعر مشهور بالهجاء، أن ينفذ إلى أخلاق القاضي الفاضل، إلا بأن يرميه بالعجب والتهيب، حين يتكلم، ولم ينكر أنه يتهجّد بالليل، ولكنه جعل للتهجّد سبباً يقربه، من سبب وجود حديثه³.

- كان لعصر الفاضل أثراً في شعره، فتكاد تلمس فيه مركز الوزير المصري القلق الذي يتربص به أعداؤه، حوادث الزمن، ليغتصبوا سلطانه، ويسلبوا منصبه، بينما يستخدم الوزير كل ما في يده من قوة للفتك بأعدائه، وإبادتهم وشعره ناطق بهذه الخصومة القوية بين الوزراء القابضين على زمام السلطان وبين الطامعين فيه المنافسين لهم⁴.

- إن الفاضل كان يتخذ الأدب أسلوباً للرد على الأعداء، من خلال الهجاء الذي صور طمعهم وجشعهم، وفي الوقت نفسه معاناة الإنسان، ولذلك جاءت صوره غريبة، وهي أشبه ما تكون بالصور الكاريكاتورية، وأحاديثه عجيبة⁵.

- إن الفاضل يصرح بأن كتابته أعجمية غير مفهومة، ويكتب بالأعجمية بالرغم من عدم معرفته بها، هكذا جاءت أعجمية عفو الخاطر فكانت معجزة بحد ذاتها، ومع ذلك ستنتشر بالبلاد، في حلب قبل

¹ عفيف عبد الرحمن، ظاهرة التشاؤم في الشعر، الرياض: دار العلوم، ط1، 1983م، ص339.

² أحمد أحمد بدوي، القاضي الفاضل، دراسة ونماذج، القاهرة: مكتبة نضرة مصر، 1959م، ص63.

³ المصدر السابق نفسه، ص87.

⁴ المصدر نفسه، ص71.

⁵ المصدر نفسه، ص87.

بغداد عاصمة الخلافة ؛ حيث أودع الفاضل إشارة إلى خطورة العجمة في العربية وأثرها ولكن بطريقة غير مباشرة وذلك لسيطرة الأعاجم على مقاليد الحكم .

- إن مجموع التشكيلات الزمانية والمكانية في الشعر تتفاعل معا لبناء شبكة من العلاقات المختلفة التي تتقارب وتتباعد في أوضاع تزامنية وتواؤمية لخلق رؤيا أبداعية تنشأ عن الشاعر أولا ثم تنحل في الناقد فتحرك طاقات الإدراك الكامنة عنده وهذا ما تجلّى في تعقب حركتي الزمان والمكان عند الفاضل إذ نجد أنهما يتشكلان وفقا لحالات رؤياوية وانفعالية خاصة به، وفي المكان المتشكل عن القاضي الفاضل نجد أنهما يتجاوز العالم المحسوس عوالم أخرى ، أملت عليها ثقافته وظروفه بالرغم من الحركة المحدودة له في المكان، إذا لم يتجاوز منطقة الشرق الأوسط ، مع أنه هناك من أشار إلى حركة تجارة واقتصاد للرجل تجاوزت هذه الحدود¹ .

- إن القاضي الفاضل يؤمن بما يطلق عليه في الثقافة الإنسانية المستحيلات الثلاثة، الغول والعنقاء والخل الوفي، بل ويؤمن بإبراز الشعور بالغرابة والوحدة عندما لا يجد الإنسان ما يشاركه الحياة، وكأنه يعكس مبدأ مخالطة الناس والصبر على سلوكياتهم المؤذية، ولذلك يذكرهم بكرمه وبذله لهم كل ما يستطيع ، ولم يكشف لهم عسره وضيق حاله . وهو الذي ذكرهم بالخير، ولكنهم قابلوا ذلك بالنفي أي خير في ذكره، بل هناك من قابل بعبارات تحقيرية، تنم عن إقليمية بغیضة كما كان الحال في سلوك ابن عني².

- إن القاضي الفاضل كان لغيرة المكان أثره فيه، إضافة إلى تميزه وإبداعه وقدرته على الصبر، ومواصلة تحقيق الهدف، فيشعر الشعراء بالضيق، الذي يوصلهم إلى عدم القدرة على التكيف في الديار الجديدة التي نزلوها ، وإلى إرجاع هذا إلى الديار الجديدة ، التي رأوا فيها رفضا لهم، وكأن الديار ترفض الغرباء فيها³. ولعل أبرز الدوافع التي دفعت الأدباء إلى الحنين شعورهم بالغرابة، وهم في ديار جديدة مما حدا بهم أن يشعروا بفقدانهم لكل شيء مادي ومعنوي في الواقع الجديد الذي آلوا إليه، ولحظناهم يحرسون

¹ السبكي ، طبقات الشافعية، ص 253 ، 254.

² هادية دجاني ، القاضي الفاضل ودوره، ص 30.

³ محمد إبراهيم حور ، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي ، القاهرة : دار نخبضة مصر ، 1973، ص 208 .

على ذكر لفظ غريب ، والغربة في أشعارهم، وهذا ما تجلّى في شعر الفاضل الذي صور معاناته وشعوره¹

- إن القاضي الفاضل رسم في شعره علاقة متلاحمة ما بين المرأة والحب والخمرة ، فالخمرة هي التي استحضرت كل ذلك ، فعالم الخمرة عالم التواصل².

- لقد تنوعت الصورة عند القاضي الفاضل، ما بين الصورة التقليدية التي تقوم على التشبيه والاستعارة وغيرها من ضروب البيان، والصورة التي تقوم على التجسيد والتجسيم، وحركة الزمان والمكان والإنسان، وتطورات الطبيعة وظروفها والكون وأثرهما على الإنسان والذات الإنسانية³.

- إن عالم القاضي الفاضل يدور أحيانا في الآفاق والمدارات الكونية مما يولد صورا شعرية تستفز دواخل المتلقي ووجدانه⁴ .

- كان لدى القاضي الفاضل غرام قوي بالصناعة اللفظية ولذلك أعجب رجال الصناعة به، ومثل بألوانه المختلفة في شعره في شواهدهم، وقد سجلوا إعجابهم وتقديرهم لذلك⁵ وفهم على سبيل المثال ابن حجة الحموي كما أشار إلى نوع من التجديد في التشبيه⁶ خاصة في قوله:

نسجوا من الليل الشعورا وجلوا من الصبح البدورا

ولوا من القطبان والكثب والروادف والخصورا⁷

بل هناك من أشار إلى نماذج من التورية والتشبيهات وحسن التخلص، وذلك في حسن تخلصه من الغزل إلى المدح في قوله¹ :

¹ المصدر السابق، ص 208.

² كمال أبو ديب ، جدلية الخفاء، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م، ص 207.

³ ماهر عبد الفتاح ، القاضي الفاضل أدبيا ، رسالة ماجستير، ص 230.

⁴ قاسم المومني، شعرية الشعر، عمان: منشورات وزارة الثقافة، 2002م، ص 25.

⁵ أحمد أحمد بدوي، القاضي الفاضل، ص 65.

⁶ المصدر نفسه ، ص 70.

⁷ الديوان ، ج2، ص 48.

فإن فؤادي بعدكم قد فطمته عن الشعر إلا في مدحة لابن فاطم²

2. الفصل الثاني: القاضي الفاضل ناثرًا، ويتكون من مبحثين:

1،2. المبحث الأول: نشره في النقد القديم ، وينقسم إلى مطلبين:

1،1،2. المطلب الأول: آراء النقاد القدامى في مضمونه النثري الفني .

ترك الفاضل من النشر الفني (الرسائل) كما كبيرا احتفظ به يد الزمن إما على شكل مجموعات مختارة مستقلة وإما متناثرا في بطون أمهات الكتب الأدبية والتاريخية ومن خلال الاطلاع على أهم مصادر كتابات القاضي الفاضل الفنية نلاحظ الآتي اتجاهات هذه الكتابات أو الموضوعات التي كتب فيها وذلك بالوقوف على مضامين الرسائل الموجودة في مصادر كتابات القاضي الفاضل الفنية .

بيان اختلاف المنازع لمؤلفي أهم المصادر التي احتوت على هذه الكتابات وذلك بإجراء مقارنة بين رسائله في مصادرها المختلفة وبيان المكرر من الرسائل وتعليل سبب ذكر التكرار .

يتوزع نشر القاضي الفاضل إلى ثلاث مجموعات منها اثنتان لا تزالان مخطوطتان ولم تحققا والثالثة قد حققت ونشرت والمجموعتان اللتان لم تحققا ولم تنشرا بعد فهما :

1- الفاضل من كلام الفاضل :

تقع هذه المخطوطة في ثمان ومائة لوحة من اختيار جمال الدين ابن نباتة وقد بدأت بمقدمة لصاحب الاختيار جاء فيها بعد البسملة قوله: أما بعد الحمد لله منشئ الخلق بصنعه والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه حزب الحق وجمعه فهذا فقر جليلة النماء والانتماء وكلمات طيبات أصلها ثابت وفرعها في السماء اخترتها من مبتكر كلام سيدنا القاضي الفاضل رحمه الله اختيارا ينأى عني بوصفه وينأى عن الدر بعطفه .

¹أحمد بدوي ، الحياة الأدبية ، ص 361.

²ابن حجة الحموي، الخزانة ، ص 1333.

وتشتمل هذه المخطوطة على أجزاء كثيرة من رسائل القاضي الفاضل بلغت عشرين وخمسمائة من رسائل مختلفة في أغراض متنوعة أكثرها في الوصف ، ويلاحظ على هذه المخطوطة أن المختار فيها يصل إلى ما يتجاوز الورقة طولا وذلك مثل ماء جاء في وصف إحدى معارك صلاح الدين مع الفرنج وما جاء في وصف ورقة زرقاء مكتوبة بالذهب وأحيانا لا يزيد المختار على سطرين وذلك كما جاء في وصف صحراء وما جاء في تقريظ إحدى القصائد وأحيانا لا يتجاوز المختار في المرة الواحدة السطر قصرا مما لا يمكن من خلاله الوقوف على الموضوع الذي تناولته الرسالة وما يسترعي الانتباه في قصر المختارات في هذه المخطوطة ما جاء في الورقة الخامسة والسبعين منها حيث إن كل المختارات الواردة بها لم يتجاوز طول الواحد منها السطرين ونصف السطر ولكن الغالب على مختارات ابن نباتة في هذه المخطوطة يتراوح طوله بين أربعة أسطر وعشرة.

ولا شك أن المنزع الأدبي لابن نباتة كان له الأثر الواضح في هذه المجموعة من كتابات القاضي الفاضل ويظهر ذلك من فحوى كلمته التي استهل بها مصنفه حيث يظهر إعجابه الشديد بهذه الفقر واضحا يعكسه ما أضافه عليها من تقريظ ويؤكد هذا الدافع الأدبي لابن نباتة في مختاراته هذه تركيزه على الفقر التي لا فحوى لها سوى الوصف والوصف من أكثر الموضوعات التي تتجلى فيها خصائص القاضي الفاضل الأسلوبية كما سيظهر لنا .

2 - الفاضل من إنشاء الفاضل :

تقع هذه المخطوطة في ثلاث وستين مائة صفحة بالنسبة لمخطوطة دار الكتب أما مخطوطة الأزهر فتقع في خمس وستين ورقة وهي من اختيار جمال الدين ابن نباتة أيضا ولوحظ على هذه المخطوطة أن المختارات من رسائل القاضي الفاضل انتهت في الصفحة السادسة والخمسين بعد المائة من مخطوطة دار الكتب وفي الورقة الثانية والستين من مخطوطة الأزهر وأكملت النسختان بعد ذلك بأشعار لكتابنا وصدر ابن نباتة مصنفه بكلمة قال فيها : إني جمعت في هذه الأوراق ما تحصل لي جمعه من رسائل القاضي الفاضل محيي الدين عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله وعفا عنه . واشتملت هذه المخطوطة على أربع وتسعين قطعة من رسائل المختلفة للقاضي الفاضل وقد صنفها على النحو التالي :

1 - سبع وخمسون من رسائل ديوانية تسع وعشرون منها في الوصف استأثر وصف حروب صلاح الدين مع الصليبيين من هذه العدد بإحدى وعشرين خصص منها ثلاثا لفتح بيت القدس أما بقية المختارات في الوصف قد جاءت على الشكل التالي : خمسة منها في وصف عيد النحر، واثنان في وصف عيد الفطر وفي وصف الليل واحدة .

ومن خلال هذه التصنيف يمكن القول :

- إن وصف بلاغة الكتب قد نال اهتمام المصنف وهذه يفسره إعجابه بأسلوب القاضي الفاضل في هذا الموضوع لأنه من المجالات التي برز فيها القاضي الفاضل ويؤكد هذه الحقيقة إكثار المصنف من رسائل القاضي الفاضل التي كانت ردودا على رسائل العماد الكاتب بالذات لأن القاضي الفاضل كان يجد في وصف رسائل العماد مجالا فسيحا في وصف بلاغته وذلك لأن العماد كان يحرص على أن تكون رسائله للقاضي الفاضل في غاية الإبداع الفني لأسباب معينة.

- إن وصف حروب صلاح الدين مع الصليبيين قد استأثر بعدد كبير من المختارات ويعود هذه إلى طبيعة العصر الذي عاش فيه القاضي الفاضل في النصف الثاني من حياته عندما كان على رأس ديوان الكتاب في دولة صلاح الدين الأيوبي وكان بحكم منصبه هذا عليه أن يتابع الأحداث التي تدور من حوله في الدولة الأيوبية، وخاصة الأحداث الكبيرة التي تمر بها الدولة وهي حروب صلاح الدين مع الصليبيين ويظهر هذا من اختيار المصنف لثلاثة فصول لرسائل مختلفة تدور حول موضوع واحد هو فتح بيت المقدس ذلك الموضوع الذي يعد أهم حدث في عصر صلاح الدين .

ولا شك أن ابن نباتة أعجب بأدب القاضي الفاضل إعجاباً كبيراً ويظهر ذلك في مقدمته لهذا المصنف بقوله : كان شهاب الأدب الثاقب وعقيل إحياء الكلام الذي ما برحت نيران ذهنه تتوقد على المراقب الذي تتحدث الأقلام على بحر خاطره ولا حرج وتدل كلماته الفليحة على غزارة فضله كما يستدل بالروض بالأرج.

إن ما يهمنا هنا هو نشر القاضي الفاضل الفني من حيث موضوعه أو مضمونه:

- الجهاد والاستشارة الدينية في نشره:

قل أن شهد المسلمون في تاريخ حروبهم حرباً أخطر من حروبهم مع الصليبيين وهي حرب شاركت فيها الشعوب الأوروبية جميعها تقريباً كما هو واضح في قول الفاضل مخاطباً صلاح الدين في رسالة وجهها إليه في حصار عكا :

(لما اجتمعت كلمة الكفر مع أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ومزخر البحر ما تأخر منها متأخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذا أنفسهم الخبيثة لا أمراء تنفق عليهم ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصا تسوقهم ولا سيف يزعجهم مهطعين إلى الداعي ساعين في أثر الساعي وهم من كل حدب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون كنت يا مولانا كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم)

ويقول في موضع آخر:

(فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الإيمان) .

ومن هنا يتبين أن الصراع الذي قام بين المسلمين والفرج قد اتخذ شكل صراع ديني كما صورته القاضي الفاضل فيما وصل إلينا من أدبه النثري الذي واكب المعارك الدائرة بين الطرفين وموضوع رسالته السابقة إلى صلاح الدين يؤكد مضمون رسالة أخرى كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي وجاء فيها قوله :

(والفرنج هم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملوا وقرناً لا يزال يحرم السيف حتى يحلوا حتى إننا لما جاورناهم في هذا الأمد القريب وعلموا أن المصحف قد جلاء بأيدينا يخاصم الصليب)¹ .

وقد صدر الفاضل فيما كتبه عن حس إسلامي في المفهوم التكاملي العام الذي يتجاوز الأعراق والبقاع الجغرافية المحدودة وربط انتصارات المسلمين بالإرادة الإلهية كما هو واضح في رسالة له إلى دار الخلافة في بغداد بعد استعادة صلاح الدين لمدينة عكا وقد جاء في تلك الرسالة :

¹ القلقشندي ، صبح الأعشى ، 6 / 322

(ودخلناه شاكرين لله تعالى هذه الموهبة الجسيمة عارفين لله تعالى قدر هذه النعمة العظيمة والحمد لله الذي رفع كلمة الإيمان وعلاها ومحا آية الكفر بالإسلام وجلاها)¹ . وكما هو واضح في قوله أيضا حينما سقط حصن الكرك المنيع في يد صلاح الدين : وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيل سلاما سلاما .

وما يحل بالفرنج من الهزائم سرى فيه الفاضل من عقابا لهم من الله تعالى بسبب ما ارتكبه بحق المسلمين من الأعمال الوحشية حينما دخلوا بلادهم في بداية الغزو الصليبي يقول إثر سقوط بيت المقدس في رسالة وجهها إلى بغداد :

(وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة)² .

وحين يتحدث عن جهاد صلاح الدين يؤكد أن صلاح الدين يسعى من وراء ذلك إلى حماية الأرض والمقدسات الإسلامية فحسب إنما يجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه ؛ حيث يقول :

(وكان الخادم لا يسعى سعيه لهذه المنقبة العظمى ولا يقاسي البؤسي إلا رجاء هذه النعمى ولا يناجز من استمطله في حربه ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادي في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة والدعوة إلى سامعها مرفوعة فتكون كلمة الله هي العليا وليفوز بجوهرة الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا)³ .

بل ويمضي الفاضل إلى ما هو أبعد من ذلك حين يرى أن الله هو الذي اختار صلاح الدين من بين ملوك الأرض لنصرة دينه ومقارعة أعدائه وخصه بهذه الفضيلة دون غيره من الحكام لما اتصف به من صفات حميدة وحب للجهاد في سبيل الله ؛ حيث يقول :

¹ القلقشندي ، صبح الأعشى 6 / 334.

² القلقشندي ، صبح الأعشى ، 6 / 499.

³ غانم جواد ، الرسائل الأدبية ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ص 160.

(وكانت نعمة من الله يمنها على الملوك أن أنتخبه من بين أهل أرضه وانتخبه لإقامة ما ألمات الباطل من فرضه ويسره من نصرة الحق وأهله وبشره بما بشر من لواء النصر ومد من ظله وأهمه المهمة التي افتتح منها بكرا ومنحه النصرة فما يستطيع العدو صرفا ولا نصرا)¹.

وبالنظر إلى ما سبق نلاحظ كيف نظر القاضي الفاضل إلى جهاد صلاح الدين للصليبيين فهو محاط بعناية الله ورعايته؛ لأنه سيف من سيوف الله المسطرة على الأعداء وجنده هم أنصار التوحيد الذين يقارعون أنصار الشرك لرفع راية الإسلام واستعادة المقدسات الإسلامية المغتصبة ومن ذلك قوله في بشارة فتح عسقلان :

(ومن قصص الفتح أنه لما واجهتها جيوش الإسلام الناصرية وأنصار التوحيد الصلاحية وأحاط بكفارها سخط وحقوا أن ينجز لهم وعيده)².

وحين يتحدث عن معارك صلاح الدين التي خاضها مع الصليبيين وفتوحاته التي قام بها، وكان الفاضل يستلهم الكثير من المعاني الإسلامية في نثره حتى يستثير همم المسلمين ويستحثهم على مواجهة الغزاة ونصرة الدين؛ ولذا فإن الله كما يرى الفاضل يمد صلح الدين بالملائكة لتساعده في حروبه مع الأعداء³.

فصلاح الدين المجاهد في سبيل الله يقود الجيوش بنفيه وينتقل بالمسلمين منت نصر إلى نصر بعزمه وإرادته القوية حتى استنقذت المقدسات الإسلامية وحررت البلاد فأقيمت شعائر الإسلام وعاد الدين قويا عزيزا مثلما كان من قبل ومن ذلك قوله : (وهذه أمصار ومدن وقد تسمى البلاد بلدا وهي مزارع وفدن كل هذه ذوات معافر ومعافل وبحار وجزائر وجوامع الخادم بعد أن يجرزها ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ويحصل منها كفرا ويزع إيمانا ويحط من منائر جوامعها صلبانا ويرفه أذانا ويبدل المذابح منائر والكنائس مساجد)⁴.

وبعد تحرير بيت المقدس يقول القاضي الفاضل من بشارة وجهها إلى دار الخلافة مهنئا :

¹ القلقشندي ، صبح الأعشى ، 6 / 508 ، 509.

² القلقشندي ، صبح الأعشى ، 6 / 508 ، 510.

³ القلقشندي ، صبح الأعشى ، 6 / 499.

⁴ غانم جواد ، الرسائل الأدبية ، 167.

(وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث، فبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة)¹ .

بل حرصا من القاضي الفاضل على الاستثارة الدينية ركز على المعاني والشعائر الدينية الإسلامية التي رسخها صلاح الدين بعد هزائم الغزاة ومن ذلك قوله في فتح بيت المقدس :

(وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده وأقيمت الخطبة يوم الجمعة فكادت السموات يتفطرن للسجوم² لا للوجوم والكواكب منها ينتثرن للطرب لا للرجوم ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقهم مسدودة وظهرت قبور الأنبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة³ وأقيمت الخمس وكان التلث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها)⁴.

ومنائير وجموع وعساكر يتجاوزها

ومنها قوله بعد أن سقطت عسقلان في يد صلاح الدين:

(وقد نصبت أعلام الإسلام على أبراجها وأسوارها وعمرت بموحديها وخلت من مشركيها وكفارها وكبر المكبر والمؤذنون في أقطار أرجائها وزالت سمة الصبيان عن جهاتها وأنحائها ورحل الناقوس عن فنائها وعوض جامعها منه بمنبرها)⁵.

وقد اتبع القاضي الفاضل طرائق متنوعة في أدبه النثري الذي واكب المعارك والحروب الصليبية لإيقاظ المشاعر الدينية في نفوس المسلمين فكان يربط بين هزائم الصليبيين أمام صلاح الدين وبين هزيمة المشركين الذين اجتمعوا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة الأحزاب كما يتبين من قوله في رسالة إلى بغداد هنا بما الخليفة برد الغزاة وأنصارهم عن مدينة حماة سنة 573هـ ثم

¹ غانم جواد ، الرسائل الأدبية 163 .

² السجوم ، سحمت السماء الماء سجوماً ، قطر ماؤها وسال كثيرا أو قليلا.

³ مكدودة : مغلوبة .

⁴ يوسف بن إسماعيل النبهاني ، مفرج الكرب ، دار الكتب العربية، 2008م 2/ 239، 240.

⁵ الرسائل الأدبية ، القاضي الفاضل ، 148.

انصرفوا مجموعا لهم بين تنكيس الصليب وتحطيم الأصباب مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب¹ .

ومن هذه الطرائق أيضا أنه كان يربط بين الشخصيات الإسلامية المعاصرة له وبين الشخصيات التي لها شأن خاص في تاريخ الإسلام كربطه بين صلاح الدين وعمر بن الخطاب فحين عادت عسقلان إلى حمى للإسلام سنة 584هـ قال :

(وأشبهه حاضر فتح يوسفها ماضي فتح عمرها)².

ومنها أيضا الربط الدائم بين الصخرة المشرفة في القدس والحجر الأسود في مكة ؛ حيث يقول:

(ولما قدم الدين عليها عرف سويداء قلبه وهنا كفؤها الحجر الأسود بيت عاصمتها من الكافر بحربه³) . ويقول أيضا : (والبيت الحرام الذي فك أخاه من الأسر) .

وهذا أمر درج عليه الأدباء والشعراء الذين واكبوا المعارك التي خاضها المسلمون بمواجهة أعداء الدين والعقيدة ومجدوا الفتوح والانتصارات الإسلامية؛ إذ كانوا يربطون بين معارك عصرهم والمعارك السابقة التي انتصر فيها الإسلام ويربطون أبطالهم بالشخصيات الإسلامية التاريخية وذلك لاستشارة إحياءات فكرية وعاطفية في نفوس المسلمين ولاسيما والمجاهدين لما لهذه الروابط من أثر بين في تعزيز الجهاد والتضحية .

الدعوى إلى الوحدة ولم الشمل الإسلامي:

كان الفاضل يؤمن أيمانا راسخا بأنه لا شيء يوحد هذه الدويلات الممزقة المتناحرة في بلاد الإسلام ويجمعها على قتال عدوها الطامع بها غير العقيدة والدين ولاسيما أن الطرف الآخر قد اتخذ من عقيدته وسلة للتجميع والاستشارة كما هو واضح في قول القاضي الفاضل في رسالة إلى بغداد :

¹ أبو شامة، الروضتين حلمي، ج1 ق2/707 .

² الرسائل الأدبية ، القاضي الفاضل ، مخطوط ، 148 .

³ الرسائل الأدبية ، القاضي الفاضل ، مخطوط ، 160 .

(ولا خفاء بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا واستنجدوا أنصار النصرانية في الأقطار وسيروا الصليب ومن كسا مذابحهم بقمامة وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يتصورونه ممن يسموئهم القديسين)¹.

وقد اتخذ الفاضل من مواقف الفرنج تلك وسيلة للتحريض على قتالهم وهذا واضح في قوله محرضا صلاح الدين على قتالهم وتطهير البلاد من شرهم :

(والجهاد فأنت رضيع دره وناشئة حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الجبل مساكنك وفي ظلمات مشكلاته تجلى محاسنك وفي أعقاب نوازله تتلى ميامنك فشمّر له عن ساق من القنا وخض فيه بحرا من الظبا واحلل فيه عقبة من كلمات من الله سبحانه وثيقات الحبي وأسل الوهاد بداء العدا وارفع برؤوسهم الربا حتى يأتي الله بالفتح)².

ولعل هذا الشعور الديني العميق الذي حفل به أدب القاضي الفاضل النثري يفسر قوله حين هجم الصليبيون بيروت سنة 593هـ بعد وفاة صلاح الدين:

(فانظروا أنكم الإسلام كله قد برز إلى الشرك كله وأنكم ظل الله فإنه صححتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين)³.

وهذا الحس الديني نفسه هو الذي جعله يربط بين الحالة النفسية الصعبة التي عاشها المسلمون في حصار عكا وبين الذنوب المستشرية في النفوس مؤكدا أن العقيدة الصحيحة هي أساس النصر على الأعداء ويظهر ذلك في رسالة بعثها إلى صلاح الدين من مصر هو على عكا :

(إنما أتينا من قبل أنفسنا ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعلنا ما لا نقدر عليه إلا به فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله ولا يرجو إلا ربه)⁴.

¹ أبو شامة، الروضتين بيروت ، 2/ 232.

² القلقشندي، صبح الأعشى ، 10/ 97.

³ أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2/ 232.

⁴ ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 339.

الوحدة بين أفراد الأمة الإسلامية:

واجه المسلمون في عصر الحروب الصليبية زمن صلاح الدين خطرين عظيمين في وقت واحد لا يقل أحدهما عن الآخر في خطورته إذ التقى على حريهم كل من يدينون باللواء للصليب مدعومين بطاقات أوربا المادية والبشرية في حين كان حكام الدويلات الإسلامية الممزقة في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر منشغلين بأنفسهم وربما تحالفوا مع الفرنج ضد صلاح الدين والمتأمرين على الإسلام من الداخل يسعون إلى التخلص من الدولة السنية في مصر التي كانت تقف في مواجهة الغزاة وهذا واضح في قول الفاضل مخاطبا الخليفة العباسي في بغداد :

(والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظا وعدوا وكفرا فما يجاورهم إلا بلاده ولا يقارعهم إلا أجناده)¹ .

ومن المؤلم حقا أن المتأمرين على الدولة السلجوقية من أنصار الدولة الفاطمية في مصر قد شاركوا في وقت من الأوقات مشاركة فعلية في قتال المسلمين بالسيف إذ وقفوا في جانب الصليبيين حينما هاجموا دمياط سنة 566هـ ؛ حيث يقول الفاضل من رسالة وجهها إلى بغداد حينما اجتمع الفرنج وأعوانهم من المصريين على صلاح الدين في موقعة دمياط :

(ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ونصابر الضررين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدناه بنصره وخابت المطامع مع المصريين ومع الفرنج وملك الروم ومن الجنوبيين ومن أجناس الروم لأن أنفارهم تنافرت وأنصارهم تناصرت وأناجيل طواغيتهم رفعت وصلب صلبوتهم أخرجت)² .

وازداد الأمر خطورة بعد وفاة نور الدين تفرق الكلمة في بلاد الشام قبل توحيدها على يد صلاح الدين بعد قدومه من مصر؛ حيث يقول الفاضل في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي:

¹ أبو شامة، الروضتين، حلمي ج1ق2 / 648.

² المصدر نفسه، ج1ق2 / 619.

(ثم عدنا إلى البلاد فتوافت إلينا الأجناد بما الدولة عليه من تشعب الآراء وتوزعها وتشتت الأمور وتقطعها وإن كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمح إليه طالب والفرج قد بنوا بلاد يتحيفون بها الأطراف الإسلامية ويضايقون بها البلاد الشامية وأمراء الدولة النورية قد سجن أكابرهم وعوقبوا في الانتشار وصودروا على الجمل الكبار)¹.

ومن أجل ذلك كان الفرنج يحرصون على إذكاء نار الفتن والخصومة بين أمراء الشام الخارجين على صلاح الدين حينما حاول توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام ويمدون لهم العون والمساعدة حتى تستمر حال الضعف والتمزق ولكي يحافظوا على استمرار كيانهم وبقائهم على أرض الإسلام. وهذا ما يؤكد أحد مؤرخيهم وليم الصوري قائلا :

(ومن الخير أن نبذل المساعدة للملك الطفل إسماعيل لا مراعاة لمصالحهم بل لتشجيعه بعده عدوا لصلاح الدين)².

وإذ أدرك القاضي الفاضل قبل وفاة نور الدين أن الأداء كان يكمن في تفرق كلمة المسلمين واختلاف أهوائهم فقد أخذ يلح على المسلمين فيما كتبه إليهم من رسائل لكي يوحدوا كلمتهم وصفوفهم وينبذوا مظاهر التفرق والضعف ليقفوا في وجه عدوهم المتربص بهم وهذا واضح في رسالته التي بعث بها إلى نور الدين حين خشي تفرقة الكلمة بين قادة المسلمين يقول :

(فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلا أن أعطت قيادها فكونوا يدا واحدة ولا تختلفوا فتكلموا ولا تنازعوا فتفشلوا)³.

لقد آمن القاضي الفاضل إيمانا مطلقا أن القوة الحقيقية للإسلام والمسلمين إنما تكمن في وحدة الصف وتوحيد القوى الإسلامية في مواجهة الغزاة والتصدي لهم ذلك لأن الوحدة والقوة تؤمان فحين فتح صلاح الدين حلب كتب عن صلاح الدين إلى الخليفة:

¹ القلقشندي، صبح الأعشى 13/ 89.

² السيد الباز العربي، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، بيروت: دار النهضة العربية، 1967. ص 53.

³ أبو شامة، الروضتين ، حلمي، ح1، ق2/ 587.

(وأنه لا يؤثر للإسلام وأهله إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعثوها ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين ولا إساءة أن تكون الدنيا كثيرة المالكين وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة فإذا صح التدبير لم تحمل في اللقاء إلا العدة)¹ .

ومن أجل ذلك كان الفاضل يربط دائما بين اندماج المدن الإسلامية في الوحدة واسترجاع المقدسات الإسلامية في أيدي الفرنج لإيمانه الراسخ بقوة الوحدة واجتماع الكلمة فالوحدة والقوة كل واحدة منهما تدعم الأخرى وتأخذ برفبتها.

ويعبر الفاضل عن حزنه وألمه لتفرق كلمة المسلمين واختلاف أهوائهم والخطر الصليبي محقق بهم والأمر مرهون بوحدهم ، فيقول:

(يسرني أن يمد الله ظلهم ، كما يسوءني أن تختلف آراؤهم ولا تنتظم أهواؤهم)² .

ولذا فقد حمل الفاضل بشدة على الحكام والأمراء المسلمين الخارجين على الوحدة الإسلامية الذين لم ينهضوا للذود على حمى الإسلام وحملهم المسؤولية في تمكين الغزاة واستقرارهم في ديار الإسلام ووقوفهم في وجه جميع القوى الإسلامية ووحدة الصف حرصا منهم على مصالحهم الخاصة فهو يقول مخاطبا الخليفة عن صلاح الدين بشأن الموصل :

(ولو أعين به لعظمت على الإسلام عائدته وظهرت في رفع منارته فائدته؛ لأن اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة والهمة لالات النصر واجدة)³ .

ويقول في موضع منبها على خطورة الموقف المتخاذل الذي وقفه أمراء الشام من صلاح الدين حين زحف إلى الشام محاولا توحيدهم :

(ونظرنا للإسلام ولنا ولبلاد الإسلام يجر العزم في قلعه وإلا ثبتت عروقه واتسعت على أهل الدين خروقه وكانت الحجة لله قائمة وهم القادرين بالقعود آثمة)¹ ؛ ذلك لأن هؤلاء المنشقين الخارجين

¹ أبو شامة، الروضتين بيروت ، 48/2.

² النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 8: 9 .

³ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 119.

على الوحدة الإسلامية هدرُوا طاقات الأمة وعطلوها عن مواجهة الغزاة وهذا واضح في قول الفاضل مخاطبا الخليفة :

(فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصددِه وعن فرض لوصلنا يومه بغده لكان الإسلام قد أعفى من شركة الشرك وانفك من ربة أهل الإفك ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر عزلت الصلب خطباءها ولكن الدين الخالص إلى بلاد صار المشركون متوطنها والمسلمون غرباء فيها)² .

ويتحدث الفاضل عن الوحدة الإسلامية وآثارها في الإسلام والمسلمين وعن الغزاة الذين قويت شوكتهم بسبب تفرق المسلمين وتقاعس بعضهم عن نصره الإسلام فيقول في رسالة كتبها إلى الخليفة عن صلاح الدين في أمر الموصل أيضا :

هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة ودار الفرقة ومدار المشقة لو انتظمت في السلك لانتظم جميع عسكر الإسلام في دار الشرك ولكان الكفر يلقي يديه وينقلب على عقبيه ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ويغزى من مصر برا وبحرا ومن الشام سرا وجهرا ومن الجزيرة مدا وجزرا)³ .

ولكي يستثير الفاضل نفوس هؤلاء الأمراء المتقاعسين عن نصره الإسلام في حربه مع الغزاة أخذ يقارن بين موقفهم المتخاذل مع أنهم أصحاب حق وبين موقف الصليبيين الذين اجتمعوا من جميع بقاع الأرض على حرب الإسلام والمسلمين بدافع الدين والعقيدة مضحين بكل ما يمتلكون لنصرتها ومن ذلك قوله من رسالة بعثها إلى الخليفة في أثناء حصار عكا :

(وإن الباب الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم لا منكح له ولا مطعم فلاجل هذا يتهافتون على الورود ويتهاكون على يومهم الموعود وقال لهم : إن واصل في الربيع جامل على الاستنفار شمل الجميع فإذا نهض هذا فلا

¹ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 107.

² أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2/ 23.

³ أبو شامة، الروضتين بيروت ، 2/ 41.

يقعد عنه أحد ويصل معه بأهله وولده كل ما يقول لله أهل وولد فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجرون ولا يصبرون بل يتفللون ولا يجتمعون¹ .

ولقد كان القاضي الفاضل لسداد رأيه وحسن تدبيره من أكثر أدباء عصره إحساسا بأهمية القيادة الواحدة التي تجمع شمل القيادة الإسلامية وتوحد صفوفها وكلمتها أمام أعدائها الذين كانوا يشكلون خطرا حقيقيا على الإسلام وأهله ، ولما كانت الوحدة هي القوة الضاربة على أيدي فإن الفاضل كان يتهجأ أيا الابتهاج لانضمام أي مدينة إسلامية إلى الجماعة المجاهدة في سبيل الله بعد أن تتخلص من قيادتها المتقاعسة المتخاذلة وتسلم مقاليدها إلى صلاح الدين.

- وصف الجيش الصليبي في رسائله:

إن طبيعة الصراع القائم بين لصليبين والمسلمين على أرض الإسلام جعلت الفرنج على اختلاف أنماطها جنودا مقاتلين ولما كان الفاضل في كتاباته يسعى إلى تعبئة المسلمين لمواجهة العدو فقد استخدم في أدبه وسائل التحريض والاستثارة والتعبئة النفسية متخذاً من موقف الصليبين حافزا على الاستثارة والتنبه إلى الخطر الذي يهدد بلاد الإسلام ففي رسالة له كتبها إلى صاحب المغرب وصلاح الدين على عكا يقول :

(فرغ الكفار بالشام استصرخ بأهل الكفر من المغرب فأجابه رجالا وفرسانا وشيئا وشبابا وزرافاتا ووحدا) ² .

وكانت ضخامة جيوش الفرنج مما ركز عليه القاضي الفضل في كتاباته من أجل تصوير خطرهم من أجل حجمها الحقيقي ومن أجل تعظيم دور المسلمين في محاربتهم وهذا واضح على سبيل المثال في وصف للأسطول الذي هاجم الإسكندرية عام 569هـ إذ يقول من رسالة وجهها إلى ببغداد شارحا الموقف للخليفة :

¹ ناصر الدين ، محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1938م ، 4/ 239، 240.

² أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2/ 175.

(ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب القسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلب فغلبا وهزما وكسرا أراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها وعزمته القائمة بمجردها فعمر أسطولا استوعب فيه ماله ورجاله فله إلى الآن مدة خمس سنين يكثُر عدته ويتخب عدته ويحتلب مقاتليه)¹ .

ويكرر الفاضل الحديث عن الجيوش المقاتلة فهم في حصار عكا أمم لا تحصى من كثرة رجالهم² وهم حين لقيهم صلاح الدين ببيت المقدس يذكرون بيوم الحشر لكثرة عددهم وحين هاجموا دمياط :

(وصلوا إليهم بالعدد المجمع والحشد الأوفر وخصوا في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل وبرا في مائتي ألف فارس ورجل)³ .

والملاحظ من كلام الفاضل أن الفرنج اعتمدوا على كثرة عددهم محاولا بذلك أن يضعفوا روح المقاتلين المسلمين المعنوية ظنا منهم أن العدد هو أساس النصر على المسلمين المتسلحين بسلاح العقيدة .

بل وكثيرا ما كان القاضي الفاضل يتحدث عن إمدادات الصليبيين المتدفقة عليهم من أوروبا بعد سقوط معظم مدتهم في يد المسلمين إثر هزيمتهم في حطين بل ويظهر الفاضل تعجبه من الفرنج رغم أنهم على باطل ومن تخاذل المسلمين رغم أنهم على حق وقد تكرر ذلك في رسالته التي وجهها إلى الخليفة وأمراء المسلمين وخاصة خلال حصار عكا الذي عاناه المسلمون أيما معاناة بسبب ضيق إمدادات ومن ذلك رسالة أرسلها إلى بغداد شارحا الحال في عكا يقول :

(ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمددهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه)⁴ .

¹ مفرج الكروب ، 2 / 491 .

² أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 136 .

³ القلقشندي، صبح الأعشى ، 7 / 501 .

⁴ الأجاج : الماء المالح .

وأحيانا يعتمد الفاضل من أجل استشارة المسلمين إلى الإشادة بجلد الفرنج في القتال وغيرتهم القوية على عقيدتهم فمن ذلك قوله من رسالة وجهها إلى الخليفة :

(وقد بلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا للصوت وفارقوا المحبين الأوطان والأوطار وهجروا لمألوفين الأهل والديار)¹ .

بل لم ينكر الفاضل ما كان يتحلى به الفرنج من عزيمة وإرادة وصبر على القتال وشدائده ومما قاله في ذلك :

(وصدورهم لا يملؤها إلا الطعنة، وكانوا قد اجتهدوا في القتال، وصبروا على مر النصال والنضال)² .

ويعترف الفاضل بمهارة الفرنج القتالية ودرايتهم بفنون الحرب القتال كما يتضح من قوله في رسالة وجهها إلى الخليفة :

(ولهم خذلهم الله تنوع المكاييد فإخهم قاتلوا مرة بالأبرجة³ وأخرى بالمنجنقات وثالثة بالدبابات ورابعة بالكباش وأخرى باللوالب ويوما بالنقب وليلا بالسرابات)⁴ .

وعلى المقابل الآخر يهون أحيانا من شأنهم رافعا لتهيب المسلمين منهم وذلك حين يتهمهم بتجنب المواجهة على الرغم من كثرتهم وهم في عقر دارهم والمسلمون يعيشون بأرضهم أو حين يحتمي جيش كثيف لهم بحصن الداروم بقيادة ملك القدس بدلا من مواجهة جيش المسلمين دونه عددا وعدة يقول الفاضل :

(والعدو المخذول لا يقاتل إلا على رقبة وحذر ولا يقاتل إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر)⁵ .

¹ أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 161 ، 162 .

² القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 49 .

³ آلة من آلات الحصار تصنع من الخشب الصلب والحديد .

⁴ جمع سرية وهي جماعة من الجند.

⁵ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 139 .

ولقد وصفهم الفاضل بالغدر والخيانة وليس لهم عهد بل المهم مصالحهم الخاصة حتى أصبح الغدر والخيانة من خصائصهم في تعاملهم مع المسلمين وذلك يتضح في قوله مما كتبه إلى الخليفة حينما عرضوا عليه صلح الرملة عام 588هـ :

(وكيف تشنع ملك إنكلترا بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا جهارا)¹.

ويتحدث الفاضل عن المسلمين الذين تعاملوا مع الفرنج ضد المسلمين فيندد بهم في رسائله كالأعراب الذين كانوا في جنوب فلسطين والأردن إذ كان بعضهم أدلاء للغزاة مما دفع صلاح الدين إلى ترحيلهم حتى يحرم الفرنج من الانتفاع ، بل وندد الفاضل بالأنصار الذين حاول بعد زوالها أن يتعاون مع الفرنج لإعادة الأمر إليها بعد أن خلصت لصلاح الدين الذي كان ينوب عن نور الدين في مصر قائلا :

(وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه الكتابات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج)².

وأيضاً وصف القاضي الفاضل شجاعة المسلمين وجراحتهم على أعدائهم بعد أن أصبحت طرائقهم في الحرب معروفة لديهم قائلا :

(ولم يواجه الكفر وهو مجتمع في خيله فضلا عن رجله ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكانت العزائم لتهديده)³.

هذا الوصف كله قبل معركة حطين أما وصف القاضي الفاضل تغير بعد معركة حطين فكان وصفه أكثر دقة وتفصيلاً حيث وصف الجيش المسلم المتوجه إلى حطين وقائده قائلا:

(وقد ورد السلطان للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر وفي حشد يتجاوز إلى ألا يحصله الخاطر)¹.

¹ أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 203 ، 204.

² أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 203 ، 204.

³ المصدر السابق، 2 / 29.

ويقول في وصف الجيش :

(وذلك أن الخادم برز جسر الخشب وقد اجتمع له من العسكر ما ضاق بهذا الفضاء الأكبر وحق له يوم مسيرها أن تكدر عين الشمس بالعجاج الأكر)².

ولم يكن الفاضل حريصا على وصف أسلحة المقاتلين المسلمين وعدتهم القتالية، بل وصف شجاعتهم وقدرتهم وإرادتهم وما يسببوه من الرعب في نفوس أعدائهم يقول : (وجيوش نصره إذا عاينتها جيوش أعدائه جروا ذيول الهزائم ولا برحت جياده في أجياد الحصون تائم)³.

ويصف مهارة المقاتلين المسلمين بقيادة صلاح الدين الذي استفاد في معاركه من عنصر المباغته والمفاجأة وسرعة الحركة فيقول :

(ويح الخادم طبرية فاقتض عذرتها بالسيف وهجم عليها هجوم الطيف وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم بالأمر فلم يقدروا على الخداع والختل)⁴.

والفاضل يركز على نتيجة المعركة أكثر من وصف المعركة ذاتها فيعبر عن شماتته بالعدو المنهزم ويسخر منه، وهذا واضح في قوله مصورا هزيمتهم في حطين من بشارة على لسان صلاح الدين وجهها إلى بغداد:

(وكان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمدته الله بمداركته وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر وأسر منهم من أسرت به السلاسل وقتل منهم من فتكت به المناصل)⁵.

ويتحدث الفاضل عن أسرى الفرنج واصفا لهم بقوله :

¹ أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 29.

² القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 38 ، 39.

³ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 38.

⁴ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط 39 .

⁵ القلقشندي، صبح الأعشى ، ص 499 / 6 .

(فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الأسرى يساقون مقرنين لحمدت الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين)¹ .

وصف حروب الحصون والقلاع:

اعتمد الفرنج في حروبهم على كثرة الجيش والتحصينات المنيعة وذلك ليحبطوا أي هجوم من الجيوش الإسلامية وليحافظوا على ما احتلوه من أراضٍ، وهذا الذي صوره القاضي في رسائله؛ حيث وصف الفاضل الكثير من الحصون في رسائله مثل حصن بيت الأحزان وحصن الكرك والشوبك وحصن البرزية ووصفها؛ لأنها كانت مصدر قوة الفرنج ومنعتهم، ومن ذلك قوله في حصن بيت الأحزان حينما هاجمه صلاح الدين: ونظر ما أتقن به الكفر وتم له من حصن مشرف الأبراج مشرفها موضوع على أشرف التلال الوعرة وأقهرها لمن تحته وأكشفها² .

ومن هنا يظهر لنا مدى الجهد العظيم الذي بذله المقاتلون المسلمون الذين استباحوا هذه التحصينات العظيمة التي عانى المسلمون من وجودها في حروبهم مع الصليبيين وهذا واضح في كلام الفاضل عن حصن كوكب :

(وهي كراسي ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم وكان بمجمع طرق قاعدا ولملتقى السبل راصدا)³ .

ويتحدث عن صورة الجيش الإسلامي وهو محيط بالحصن من كل جانب والسلطان يطوف حول الحصن من أجل معاينته واكتشاف ثغراته قائلا حين هجم صلاح الدين حصن بيت الأحزان :

(وفي الحال أطافت به المقاتلة من جميع أقطاره ولبوا تلبية الحجيج)⁴ .

بل قدم الفاضل لنا صورة متحركة للهجوم على هذه التحصينات المنيعة وامتلاكها بعد نقب أسوارها ومن ذلك قوله في مهاجمة حصن الدروام :

¹ الفاضل من كلام القاضي الفاضل ، مخطوط 100.

² أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 13.

³ القلقشندي، صبح الأعشى ، 7 / 28.

⁴ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، مخطوط ، ص 129.

(وصابحنا الدير بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف ضاربا)¹ .

كما قدم الفاضل وصفا دقيقا للأبراج والأسوار الشامخة إثر قذفها بالمجانيق قائلا : (وصابحنا الدير بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف ضاربا فلما تعالى النهار ملكنا روضه وأطلقنا عليه النهار ورملنا الرجال بالدم وأرملنا النساء)².

ولم يذكر الفاضل النساء من الأعداء وهذا يدل على أن الهدف الأسمى لهم في تلك الفترة هو الجهاد وليس السبي ويوصف الفاضل لمهارة الفاضل في إقامة حصونهم يدل على مهارة المقاتلين المسلمين في اختيار أساليب تدمير هذه الحصون واستباحتها كما هو الحال في حصن الشوبك الذي استعصى عليهم لسعة خندقه³.

- وصف صلاح الدين في رسائل الفاضل :

كانت الشخصية المحورية في كتابات الفاضل هي شخصية صلاح الدين في مواكبة الحروب الصليبية في تمجيد بطله المقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمته في الأرض ومن ذلك قوله :

(والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك من التي دوخها، وسنن الضلال التي نسجها، وعقود الإلحاد التي فسخها ، ومنابر البطل التي رخصها وحجج الزندقة التي رخصها)⁴ .

ويعبر عن أن صلاح الدين ضحى براحته وهجر أهله ووطنه مؤثرا حياة الخشونة والجهاد على الراحة والدعة وزهد في الدنيا حتى أنه حينما انتقل إلى جوار ربه مع سعة ملكه لم يخلف مالا ولا عقارا وفي هذا يقول الفاضل عن صلاح الدين :

(وقد علم أن الخادم بيوت أمواله بيوت رجاله وأن مواطن نزوله مواقف نزاله ومضاربه خيامه لا أكنة ظلاله وأنه لا يدخر من الدنيا إلا شكته¹، وال ينال من العيش إلا مسكته)² .

¹المصدر السابق نفسه.

²أبو شامة، الروضتين ، حلمي، ج1، ق489/2.

³أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2/ 56.

⁴الرحض: الغسل والتطهير.

وتحدث الفاضل عن صبر صلاح الدين عن مواصلة الجهاد رغم كثرة الأعداء وقلة موارده المالية والعسكرية وضجر جنده في حصار عكا فيقول الفاضل في رسائله : (ولو أن في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح لقال ما يبكي العين وينكي القلب وتنشق له المرائر وتنشق له الجيوب ولكنه صابر محتسب منتظر لمصر الله ومرتقب قائم من نفسه بما يجب، ربي إني لا أملك إلا نفسي وأخي)³ .

وعندما يصور الفاضل صلاح الدين ليس صورته صورة القائد العسكري الشجاع فحسب فهو رجل حكم وسياسة وحسن تأت للأمر في علاقاته مع القوى السياسية الأخرى ومن مظاهر هذه الحنكة السياسية أنه استغل سوء العلاقات بين الفرنج والدولة البيزنطية فحسن علاقته من البيزنطيين حتى صاروا عيوناً له عليهم يطلعون على تحركاتهم وخططهم قبل تنفيذها وقد استغل الخلافات الداخلية في صفوف الفرنج من أجل أن يفرق كلمتهم ويضعف جبهتهم الداخلية فيقول الفاضل في ذلك : (فإن في تحاذلهم نصرة للإسلام، وشغل بعضهم بعضاً وافتراق كلمتهم المجموعة وقطعا للميرة عن الشام وأمننا لجانب كثير من جوانب البحر)⁴ .

بل يقول مشيداً بحنكة صلاح الدين وحسن تديره للأمور :

(ولقد سخر الله سبحانه في صدره بحر الحكمة ، وسنح على لسانه جوهرة فهو إن سلك سلك جدداً)⁵ .

وقال : (وإن أشار أشار سدا وإن قال قال رشدا وإن تفاوتت رتب أعضاء الخلق فقد ظهر قلباً ولساناً ويدا)⁶ .

¹ أبو شامة، الروضتين ، حلمي ، ج 1 ق 2 / 623 .

² الشبكة : ما ييس من السلاح أو يحمل .

³ القلقشندي، صبح الأعشى ، 7 / 129 .

⁴ أبو شامة، الروضتين ، بيروت ، 2 / 168 .

⁵ الجدد : الأرض المستوية اللسان .

⁶ القاضي الفاضل، الرسائل الأدبية ، ص 67 ، 68 . مخطوط

2،1،2. المطلب الثاني: آراء النقاد في أسلوبه وبنائه الفني في نثره الفني:

لقد اتسمت طريقة القاضي الفاضل الكتابية بخصائص عدة ميزتها من كتابات الكتاب الذين سبقوه وكان أثرها واضحاً في كتابات تلاميذه من الكتاب الذين عاصروه والذين أتوا من بعده وهذه الخصائص هي : طول العبارة مما تجاوز ما كان عند الكتاب قبله ، التزام السجع في كل كتاباته التزاماً لم ير من قبل عند أحد من الكتاب الذين سبقوه والإكثار من الجناس كثرة ملحوظة تكاد لا تخلو منها عبارة من عباراته، والإفراط في الموازنة ، ومراعاة النظير والتورية والإفراط في الاستشهاد وتضمنه نثره ولاسيما في الرسائل الإخوانية كثرة الاقتباس من القرآن الكريم الإكثار من الصور البيانية ومزجها بالألوان البديعية مرجع فيه كثير من التعقيد، وسوف نبين هذه الخصائص من خلال نص من نصوصه فمثلاً قوله:

((يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين وصلت بشرى المجلس السامي أعلاه الله وشيده وأسعد وأصعده وشكر مسهده وأنجح مقصده وملاً بالحسنات أمسه ويومه وغده وأهلك وعادى أعداءه وحسده واجتثت بسيفه زرع الكفار وذراه وحصده بما من الله سبحانه من نصرة المسلمين عند لقاء عدوهم وما وليهم الله من القوة والإظهار وما قذف في قلوب الكفر من الخوف والحدار وشرح القضية لوحاً للصدور واستوى فيها الغياب مع الحضور فكانت البشارة منه وكانت المباشرة له، وما كل من بشر بأشراً، وما كل من غار غاور، ولا كل من خبر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كل من حدث عن الرماح عانقها بصدرة فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به وأتم النعمة عليه كما أتمها فيه وتقبل جهاده الذي جلى فيه الكربات ما ينبغي فيه القربات))¹

وبالنظر إلى هذا النص يمكن أن نستخرج منه خصائص الفاضل في نثره والتي منها: اقتباسه من القرآن الكريم مثل :

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، وما قذف في قلوب الكفر من الخوف على غرار وقذف في قلوبهم الرعب) .

¹ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 5 ، 150 ، 151.

- كثرة الجمل الدعائية ؛ حيث أنها بلغت في هذا النص خمس عشرة جملة، منها اثنتا عشرة جملة متتالية.

- ألوان البديع المختلفة التي منها مراعاة النظر مثل :

(أمسه ويومه وغده ، زرع وذراه وحصده ، السيوف والرماح ، وجهه وصدره).

- كثرة السجع المتكلف مثل :

(وما كل من بشر باشر، وما كل من غار غاور، ولا كل من خبر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كل من حدث عن الرماح عانقها).

- الإطناب في المعاني ؛ حيث فجمله كثيرة تحوي معاني قليلة فيمكن التعبير عنها فيما لا يزيد عن خمسة سطور إذا تم تنحية الكثير من الجمل الدعائية يقول فيها الفاضل :

((ورد كتاب المجلس نصر الله عزمته وشكر همته وأتم عليه نعمته وصرف به وعنه كل دهر وملمته ومؤلمته وأعان أوليائه على أن يؤدوا خدمته ، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته ، وأجزل قسمته من الخير الذي يحسن محبيه قسمته سافرا عن مثل الصباح السافر متحدثا عن روض أفعاله بلسان السحري الساحر حاملا حديث بيضه ، وسمره حديث السامر ، وهنأ بالفتح وهو يهنأ به وكيف لا يهنأ بالفتح من هو فاتحه وكيف لا يشرح خبر هـ من هو فاتح كل مصر وشارحه ، ولقد دعا له لسان كل مسلم ، وساعد لسانه جوارحه ، وعلم أنه باشر الحرب وتولى كبرها ، وأخذ جمرها ، ولقى أقرانها ، وافترس فرسانها وجبن شجاعانه وشجع جبانها))¹.

وفي هذه العبارة يتضح بعض خصائص أسلوب القاضي الفاضل والتي منها :

- الجمل الدعائية الكثيرة والاعتماد على العطف وخاصة حرف الواو فيورد حرف العطف الواو عشرين مرة وأيضا كثرة الجناس كثرة ملفتة.

- كثرة الموازنة في جملة مثل :

¹النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ، 5 / 151، 152.

(نصر وشكر ، نعمته، وملمته، ومؤلمته، قسمته، ورحمته ، الساحر والساحر، فاتحه وشارحه ، جمرها ، كبرها، فرسانها، أقرأها).

- كثرة السجع لإطالة عباراته مثل :

(وأعان أوليائه على أن يؤدوا خدمته ، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته ، وأجزل قسمته من الخير الذي يحسن محبيه قسمته).

وهنا بالفتح وهو يهنا به وكيف لا يهنا بالفتح من هو فاتحه وكيف لا يشرح خبر ه من هو فاتح كل مصر وشارحه. وهذا السجع يتميز بالطول الكثير والسجع كلما كان طويلا كان أكثر قبولا لدى المتلقي.

- طول العبارة رغم أنها لا تحمل إلا معنى محدد وهذا يتضح في هذه العبارة التي تحمل معنى محدد رغم كثرة كلماتها فهي في هذه العبارة لا تحمل إلا معنى واحد وهو الشجاعة ورغم ذلك يقول:

(وعلم أنه باشر الحرب وتولى كبرها ، وأحمد جمرها ، ولقي أقرأها ، وافترس فرسانها وجبن شجاعانه وشجع جبانها).

نص ثالث :

((فالحمد لله الذي صدقه وعده ، وأورثه الأرض وحده ، وجدد علاه وأعلى جده ، وأسعد نجمه ، وأنجم سعده ، ووعدته نجحه وأنجح وعده ، وأورده وصفه ، وأصفى ورده))¹.

ويلاحظ في هذه العبارة من خصائص الفاضل ما يلي :

- العكس والتبديل أو الجناس المعكوس أو المقلوب مثل :

(ووعدته نجحه وأنجح وعده، وجدد علاه وأعلى جده ، وأسعد نجمه ، وأنجم سعده، وأورده وصفه ، وأصفى ورده).

¹القلقشندي، صبح الأعشى ، 6 / 511.

وقال : ((وذكر من الله سبحانه وتعالى في الملاء الله ورحمة الله وبركاته معلومة من النشأة الأولى على مولانا الإمام المستضيء بالله المستضاء بأنواره، المستضاف بداره، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الراعي للخلق كما يرعى النسيم العام فضله وعدله المطروق مورد فنائه، المصدوق في مورد ثنائه، المحقوق من كل ولي من أوليائه ابن السادة الغر ، والقادة الزهر، والذادة الحمس، والشادة للحق على الأرض، سقاة الكوثر وزمزم والسحاب، وولاة الموسم والموقف والكتاب ، والموصول الأنساب ، وإذا نفخ في الصور فلا أنساب ، والصابرون على حساب أنفسهم فهم الذين يؤتون أمرهم بغير حساب))¹.

ويلاحظ في هذه العبارة من خصائص الفاضل الوصف ؛ حيث يرد كلمات واصفة مثل :

(الملاء بالأعلى ، النشأة بالأولى ، المستضيء بالله ، المستضاء بأنواره، المستضاف بداره، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الراعي للخلق، المحقوق من كل ولي من أوليائه ابن السادة الغر ، والقادة الزهر، والذادة الحمس، والشادة للحق على الأرض، سقاة الكوثر وزمزم والسحاب، وولاة الموسم والموقف والكتاب).

ويقول في نص رابع:

((وإلى اليقين الذي ظهرت شوارده، والعلم الذي هبت بمذاكرتك رواكده ، والفهم الذي تظاهرت مناظرتك مراشده، والنظر الذي ألقى فرسان الجدال بالجدالة ، والأثر الذي يقضي عليك بالعدالة ، والإرشاد الذي ما بدا لفهم الشاك إلا ما بدا له، والفتيا التي ضربت شبح الباطل بسيوفها ، وحل مسامع المستفيد بشنوفها ، والجلالة التي لم يمل مسموع أوصافها ، والعدالة التي لا يمل مشروع إنصافها))².

ويلاحظ في هذا النص :

- الاعتماد على الأسماء الموصولة مثل :

¹القلقشندي، صبح الأعشى ، 6 / 506 ، 507.

²القلقشندي، صبح الأعشى ، ص 427 ، 428 .

(الذي تظاهرت مناظرتك مرآشده، والنظر الذي ألقى فرسان الجدل بالجدالة ، والأثر الذي يقضي عليك بالعدالة ، والإرشاد الذي ما بدا لفهم الشاك إلا ما بدا له).

- الموازنة والجناس : مثل :

(الجدالة ، العدالة ، الجلالة ، الإزالة ، الإدالة ، موارد ورواكذ، سيوفها وشنوفها ، مسموع ومشروع ، أوصاف وأنصاف) .

2،2. المبحث الثاني: نشره في النقد الحديث، ويتكون من مطلبين:

1،2،2. المطلب الأول: آراء النقاد المحدثين في موضوعه النثري الفني.

من النقاد والباحثين الذين لهم موقف من مذهب الفاضل الكتابي محمد كامل حسين الذي يرى أن الفاضل يعد شيخا من شيوخ الكتابة وعمالقتهم في الأدب العربي واستدل على ذلك بأن شهرة الفاضل في فن الترسـل كانت حديث رجال البلاغة العربية ، بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبي ، فكل الذين تحدثوا عن فن النثر أشادوا به ¹.

ولقد لاح ناقدنا أن القدماء فطنوا إلى أن الفاضل كان يسرف بل يبالغ في ذلك ، بل كل ما حوله اقتدوا به وساروا على نهجه ووافقهم ناقدنا في ذلك لكنه لاحظ أن المبالغة في القول ليس جديدة على مصر والمصريين، بل أنها من أخص الخصائص الشخصية على مر العصور، فإذا كان الفاضل قد بالغ في نشره فهو لم

يأت بشيء جديد على مصر، إنما كان يعبر عن طبيعة الشخصية المصرية كما عبر عنها الكثير من الشعراء والكتاب الذي عبروا عن الشخصية المصرية وأسرفوا في ذلك ².

بل وتحدث ناقدنا عن مهارة الفاضل في فنه الناتجة عن طول تدريبه عليه في دواوين الفاطميين وأخذ عن الكتاب والشعراء الأمر الذي جعل النقاد والمؤرخين ينسبون له هذا المذهب الفني وتلك الطريقة

¹ محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، مؤسسة هنداوي ، 2017م، ص 212 .

² المصدر نفسه ، ص 214 .

التقليدية ، ولكنه يرجع ويقول أن نسبة المذهب للفاضل هو نوع من التعسف في الحكم النقدي والتاريخي وذلك لأن السبب في إشادة المؤرخين والنقاد بالفاضل هو مكانته السياسية في عصره ؛ حيث كان وزير مصر في الأيام الصلاحية وصاحب السلطان الفعلي في البلاد ، وهذا لا يضيع من مكانة القاضي الفاضل في النشر .

ومن النقاد الذين لفت نظرهم فن الفاضل شوقي ضيف حيث قال:

(وكان أبلغ كتاب عصره فدفع العصر الأيوبي كله من ورائه في دوائر نماذجه وما أتاحه لهذه النماذج من صفات أدبية؛ حيث تميز عنده : ارتفاع كعبه في البلاغة حتى بز بلغاء عصره ، ابتداعه طريقة في الكتابة نسب إليه تلك الطريقة التي سماها الناقد دوائر نماذجه ، طريقته في الكتابة وجدت من المتلقين في عصره وبعد عصره إقبالا شديدا على اتباعها حتى كانوا من شدة اتباعها يدفعون إليها دفعا؛ حيث قال الناقد عنه : ومهما يكن فإن القاضي الفاضل كان أستاذ عصره بدون منازع)¹ .

2،2،2. المطلب الثاني: آراء النقاد المحدثين في أسلوبه وبنائه الفني في نشره الفني.

ويلحق الدكتور عبد اللطيف حمزة ؛ حيث يقول على الرسالة الديوانية في الحروب الصليبية : (والرسالة الديوانية خاصة في عهد الحروب الصليبية إنما كانت توجه إلى الخليفة العباسي في بغداد وكان يكتبها أديب بارع مثل القاضي الفاضل أو العماد الأصفهاني في العهد الأيوبي أو محيي الدين بن عبد الظاهر في العهد المملوكي . ومعنى ذلك أنه لابد لهذه الرسالة الديوانية أن تتوافر فيها القيم الفنية ما لا يمكن توفره في أي فن من الفنون الأدبية الأخرى)² .

وهذا يدل على تقدير هذا الناقد للرسائل الديوانية التي كتبت في عهد الحروب الصليبية التي قاد زمامها القاضي الفاضل ، بل ويكشف ريادة الفاضل في هذا الفن حيث يقول :

¹ شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة: دار المعارف، 1974م ، ص 368 .

² عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص 179 ، 180 .

(وطرأ على مصر رجل من فلسطين هو القاضي الفاضل وتعلم هذه الطريقة من طرائق التعبير في مصر ثم ازداد مع الأيام تعلقا بها وتيسر له طبعاً بعد أن يكون سياسياً وأديباً للمصريين وأن ينشر مذهبه الفني فانتشر انتشاراً كبيراً وتحمس له الكثرة من أهل مصر)¹.

بل وعد عبد اللطيف حمزة أن مكانة الفاضل السياسية هي إحدى عوامل رواج أدبه واتباع غيره مذهبه في الكتابة ؛ حيث قال :

(لما كان هذا الرجل وزيراً للسلطان صلاح الدين كان نفوذه الشخصي أيضاً من العوامل التي أعانت على رواج أدبه وعلى تقليد كبار الموظفين في الدولة له)².

وهذا يدل على أن أعلام الأدب العربي الذين هم كالقاضي الفاضل وأبي تمام ما تمكنوا من إبداع فنونهم التي تعد أعلى ما يعتز به ويفتخر على الآداب الأخرى إلا بعدما تمثلوا الثقافات التي سبقتهم وعاصرتهم تمثلاً دقيقاً مكنهم من تحويل هذه الثقافات إلى فن رفيع وهذا معناه أن الفن كالبنا لا يقوم على غير أساس بل إن أهم مكونات الفن هي الثقافات التي لغير الفنان والتي استطاع الفنان أن يدمجها دمجاً جعل منها أدباً خاصاً بها ؛ حيث قال الدكتور حمزة : قليل جداً من الأدباء في العصور الأدبية جميعها أن يحيل الثقافة التي لهم إلى فن كما فعل القاضي الفاضل ومن سبقه من أعلام الأدب العربي³.

ومن النقاد والباحثين الذين اهتموا بأدب القاضي الفاضل أيضاً الدكتور أحمد بدوي حيث قوله بعد استعراضه للمراحل التي مر بها القاضي الفاضل حتى وصل إلى المستوى الذي أهله لريادة طريقة عرفت به في كتابه وعرف بها :

(وهكذا تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الإنشائية وجعلها منتشرة وقد أخذ نفسه بإتقان فن الكتابة حتى اختط لنفسه طريقة عرفت به وامتاز به في زمانه وما تلا من أزمان)⁴.

¹ أبو بكر بن محمد بن حجة الحموي، ثمرات الأوراق في المحاضرات، صيدا، المكتبة العصرية، 2005م. ص 136.

² عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2016، 1970م، ص 28.

³ أدب الحروب الصليبية، ص 202.

⁴ أحمد بدوي، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم، د.م: دار نخضة مصر، 2016م، 2016م، ص 4.

بل ويتضح موقف الدكتور أحمد أحمد بدوي من القاضي الفاضل ومذهبه النثري في قوله : (حتى ازدحمت رسائله بألوان الصناعة التي لم تحل بين القاضي الفاضل وبين أن يتناول برائله جميع ما تتطلبه من شؤون داخلية وخارجية)¹ .

وأشار الدكتور أحمد أحمد بدوي طريقة الفاضل التي جرت عليه الكثير من النقد وهي صعوبة الطريقة الكتابية على من لم يؤتوا القدرة على التعبير بها مما جعل كل من يخفق في سلك هذه الطريقة يجسم هذه الصعوبة للناظر في الكتابة الفنية؛ حيث قال : (وبرغم ما في طريقته من مشقة وعنت استطاع أن يعبر عما يجول في نفسه من عواطف إخوانه وأن يؤدي جميع ما تحتج إليه الدولة في شؤونها الاجتماعية والسياسية)² .

3. الفصل الثالث: القاضي الفاضل ناقدًا

لما كانت ثقافة الأديب وخبراته في الحياة من أهم مقومات شخصيته، فإن أصداء هذه الثقافة، لابد أن تنعكس بصورة جلية على نتاجه وتفكيره ، سواء أكان هذا بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة³.

والمتفحص في رسائل هذا العصر لا يعسر عليه أن يقف على ملامح بيئة من أثر الثقافة الدينية في مضامين الرسائل في العصر الأيوبي، وسوف نذكر أهم الملامح التي كثير ذكرها في رسائل هذا العصر؛ حيث كان من المظاهر التي كان الكتاب يلجئون إليها في التصرف في النص المقتبس تغيير الضمائر ؛ حيث كان يبدل الضمير المتصل باسم ظاهر أو نقله من الحاضر إلى الغائب، ومن الشواهد التي يمكن التمثل بها على هذا المنحى ما جاء في رسالة الفاضل القدسية:

(فبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، والموارد العذبة تذهب بالموارد الآسنة)¹ .

¹ أحمد بدوي، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص 14 .

² القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج ، ص 3 .

³ محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر القيسراني، د.م: المكتب الإسلامي، 1971 ، ص 215.

والفاضل هنا استبدل الاسم الظاهر بالضمير المتصل وهو لفظ الجلالة كما في الآية القرآنية : {ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة} ² .

بل ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب التلميح إلى بعض آيات القرآن عن طريق إيراد لفظة أو عبارة، ومن الشواهد على هذا المنحى رسالة الفاضل في مدح آل أيوب:

(فبهذا عرفتم بأهل المعروف، ومن آل أيوب وكذا كان يوسفكم - رحمه الله - يقضي كل حاجة في نفس يعقوب) ³ .

والكاتب هنا يلح إلى قوله تعالى : {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۖ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ⁴ .

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب، أسلوب حل الآيات القرآنية، وإعادة نثرها من جديد، وهو يختلف عن حل المنظوم؛ وذلك لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملة، فإن ذلك من باب التضمن، وإنما يؤخذ بعضه، فإما أن يجعل أولاً لكلام أو آخر على حسب ما يقتضيه ⁵.

ومثل ذلك ما جاء في رسالة الفاضل التي يفخر بها بكتبه؛ حيث يقول:

(قد علم الناس أن كتي لا لغو فيها ولا تأثيم، ولا مجال فيها إلى هماز مشاء بنميم ، إني فيها على هدى قوم) ⁶ .

وهذا نثر للآيتين القرآنتين : { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا } ¹ و { هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ } ² .

¹ رسائل ابن الأثير، تحقيق: نوري القيسي وهلال ناجي، جامعة الموصل، ص 78.

² سورة الأعراف : 95.

³ الفاضل من كلام الفاضل ، جمع ابن نباتة المصري ، ص 37 .

⁴ سورة يوسف ، 68 .

⁵ نصر الله بن محمد ابن الأثير الجزري، المثل السائر في أدب الكاتب والشعر، بيروت: المكتبة العصرية ، ص 117 / 1 ؛ ابن الأثير، الوشي المرقوم ، القاهرة: شركة الأمل ، 2004م ، 100.

⁶ الفاضل من كلام الفاضل ، جمع ابن نباتة ، ص 54.

بل ومن الأساليب التي أفاد منها الكتاب نثر القصة القرآنية بصورة موحية مكثفة معبرة؛ حيث احتفل الكتاب في هذا العصر بالقصص القرآني واستلهموا منه مواقفهم التي تسعفهم في التعبير عن الموقف الذي يريدون بأقل الكلمات وفي هذا السبيل رأى الفاضل في بعض خيوط قصة آدم عليه السلام، وخروجه من الجنة ما يسند حديث عن سقوط بيت المقدس، وخروج المسلمين منه؛ حيث يقول :

(وما كان إلا جنة إسلام، فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة)³.

وهنا يشير الفاضل إلى قصة خروج آدم من الجنة كما قصها القرآن⁴.

وهناك تفاوت في تناول المادة القرآنية بين الكتاب، فقد كان بعض الكتاب يحرصون على تناول أساليب الاقتباس في جل ما يكتبونه من رسائل، فالقاضي الفاضل كان يتكأ بصورة واضحة على المادة القرآنية في كتاباته، فقد كان شديد التعلق بكل ما له صلة بالنص القرآني وتدبر ما فيه من جمال وبيان ، فأدب هذا العصر هو أدب مواجهة بين المسلمين والفرنج؛ ولذا كان من الطبيعي أن يتجه القاضي الفاضل في كتاباته إلى منبع العقيدة الإسلامية، وأن يغترف من ألفاظه وصوره في التعبير، حيث كانت هذه السمعة من أبرز السمات الفنية التي استرعت أنظار الذين اتصلوا بفنه الكتابي من قدامى ومحدثين؛ حيث يقول سبط ابن الجوزي :

(وهذه الخاصية التي تلفت النظر إليها، هي خاصية نثر القرآن على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار)⁵.

ويبدو أن أثر الحديث النبي الشريف أقل من القرآن الكريم بسبب قدسية النص القرآني، مما جعل الكتاب ينظرون إليها نظرة النموذج والمثال المحتذى، في حين ظل الحديث النبوي أقل مرتبة في تأثر الكتاب، كما

¹ سورة الواقعة ، 25 .

² سورة القلم ، 11.

³ القلقشندي ، صبح الأعشى ، 6 / 496.

⁴ وهذا موجود في [سورة البقرة ، 36] (فَأَرْهَمُوا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) ، و[سورة الأعراف ، 24]: (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) ، و[سورة طه ، 124]: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) .

⁵ يوسف بن قز أوغلي سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، دمشق: دار الرسالة العالمية، 2012، ص 8 / 472.

أن الأخبار النبوية كثيرة لا يمكن حصرها ، أما القرآن فله حاضر وضابط ، وكل آيات تدخل في الاستعمال¹.

وتراوحت أساليب الكتاب في الإفادة من الحديث النبوي الشريف، ومن هذه الأساليب:

الاستشهاد به والتمهيد له بعبارات مشعرة بالنقل عن حديثه صلى الله عليه وسلم، ويأتي الاستشهاد به بعد أن يقرر الكتاب فكرة ، فيأتي بالحديث للتأكيد على فكرته .

ومن ذلك قول الفاضل في رسالة شفاعته له :

(وليعلم الأمير أن حسن صنع الله بالعباد أن يحوج إليه أرباب البيوت الكبيرة القدر، وأن يقدر على ادخار الأجر، ويوفقه لاكتساب الشكر والذكر، والخبر النبوي معروف في إكرام عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر)² .

حيث يظهر هدف الفاضل من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف؛ حيث يرمي لفكرة الإحسان إلى من جار عليهم الزمن بعد العز والثراء ، فأورد الكاتب هذا الحديث تدعيماً لرأيه. وأيضاً من ضمن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب حل ألفاظ الحديث النبوي في ثنايا رسائلهم ونثرها، ومن شواهد هذا المنحى ما جاء في رسالة الفاضل إلى صلاح الدين ؛ حيث يقول :

(كتب الخادم لو تابعت بمنزلة المقتنص البهجة ، المبتكر اللذة، فكيف لا تصل إلى وترا، ولا تزور إلى غبا)³ .

ولا يخفى أن الكاتب ينظر إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم (زر غبا تزدد حبا)⁴ .

¹ ابن الأثير، المثل السائر ، 1/ 131 .

² محمد نعش ، رسائل عن الحرب والسلام ، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1978 ص 198.

³ الفاضل من كلام الفاضل ، جمع ابن نباتة ، ص 11.

⁴ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، بيروت: دار الكتب العلمية ، 1991م ، 3 / 347.

وهناك رسائل شاركت في التعبير عن حركة النقد في العصر الحديث ويمكن القول إن كل الرسائل في هذا النوع كانت نتاج علاقة حميمة بين القاضي الفاضل وابن سناء الملك فقد كان ابن سناء الملك يعتز برأي القاضي الفاضل فيه ويمدحه له وثنائه عليه وعلى كتبه وقد جمع ما كتبه إليه أو إلى والده مما فيه ثناء عليه في كتاب سماه فصوص العقول وعقود العقول .

وفي هذه الرسائل إطراء ومديح من القاضي الفاضل إلى ابن سناء الملك وإعجاب مفرط من ابن سناء الملك بالفاضل وتمثل هذه الرسائل نظرات وملاحظات نقدية في شعر ابن سناء الملك وكتاباتاته وتضم آراءه وآراء ابن سناء الملك في بعض الشعراء السالفين وكان كلما أرسل مدحه فيه أو في صلاح الدين كتب إليه مثنيا ومشيدا¹ .

وهذه الآراء نظرات نقدية وجهها الفاضل إلى ابن سناء الملك وقد اضطر ابن سناء الملك إلى أن يدافع عن وجهة نظره إزاء هذا النقد وفي هذه الرسائل كثير من آراء الكاتبين في الأدب والأدباء² .

ومن خلال نصوص رسائله تبين لنا أن آراء الفاضل النقدية جمعت رأيه في الشعر والنثر والموشح ، فأراء الفاضل النقدية في شعر ابن سناء الملك تدور في أربعة محاور نقدية هي :

الأول سدور حول رأيه في شعره بشكل عام.

والثاني يدور حول تسجيل آرائه في بعض الشعراء ونتائجهم الشعري كالبحتري وأبي تمام وأبي نواس وابن الروم وابن رشيق القيرواني.

والمحور الثالث يدور حول قضية كثر الحديث عنها في كتب النقد وهي قضية السرقات الشعرية وموقف الفاضل منها .

والمحور الرابع يدور حول قضية التجديد في شعر ابن سناء الملك .

3،1.المبحث الأول: آرائه النقدية في النثر ، وينقسم إلى مطلبين:

3،1،1.المطلب الأول: آراء النقدية في النثر القديم.

¹ شوقي ضيف ، فصول في الشعر والنقد ، دار المعارف ، 1998م، ص 172.

² المصدر نفسه ، ص 172.

لا تبتعد آراء الفاضل النقدية في رسائل ابن سناء الملك كثيراً عن نقده لشعره فقد كان نقد القاضي الفاضل لنثره نقداً تأثرياً فهو لم يفصل لم استحسّن أو يفسر لم استجاد¹

ولقد كتب الفاضل رسالتين كتبهما جواباً على رسائل ابن سناء الملك :

الرسالة الأولى فقد كتبها الفاضل جواباً عن رسالة ابن سناء الملك وأخبره فيها باختياره كتاب الحيوان للجاحظ وسمى المختار روح الحيوان وذكر فيها إعجابه بثلاثة من أعلام الكتاب من أمثال أبي حيان التوحيدي ، وابن العميد ، والوزير أبي القاسم المغربي ، إلى أن وقع على كتاب الحيوان للجاحظ فتغير رأيه فيهم فجميعهم يغير على الجاحظ ومن هنا فهو السابق وهم اللاحقون².

ويبدو للناظر في الرسالة أنها تدور حول قضية نقدية معينة هي قضية التأثير والتأثر فالجاحظ وغيره تأثروا بالسابقين واغترفوا من آثارهم فكما تأثر الجاحظ بمن سبقه فلا بد أن من أتى بعده قد تأثره بفنه وكتاباتهِ ويدلل القاضي الفاضل على هذه القضية من خلال تعداده لأبرز أعلام الفن والكتابة في الأدب العربي من أمثال سالم³ ، وعبد الحميد الكاتب⁴ ، وعمار بن حمزة⁵ ، وابن المقفع⁶.

ووقف الفاضل عند محمد بن الليث وأحقه بالطبقة العالية⁷ ، وهذا يدل على ثقافة الفاضل العميقة وصلته بالتراث وقد قال ابن النديم عن محمد بن الليث : كان بليغاً مترسلاً فقيهاً متكلماً بارعاً كاتباً⁸ .

ويقف الفاضل عند مجموعة من الكتاب المتأخرين من أمثال عمرو بن مسعدة ، وعلي بن عبيد ، وأحمد بن يوسف ، وسهل بن هارون.

¹ أحمد بن حسين الكوفي أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، بيروت: دار المعرفة، 2006م ، 3 / 76 ؛ عبد الله بن

محمد بن المعتز ، ديوان ابن المعتز، تحقيق: محمد بدیع شریف، مصر: دار المعارف، 1977م، 2 / 386.

² محمد الصاوي الجويني، ملامح الشخصية المصرية، القاهرة: الهيئة المصرية للنشر، 1970م ، ص 364.

³ محمد بن إسحاق الوراق ابن النديم، الفهرست ، بيروت: دار المعرفة ، 1997م ، ص 247.

⁴ ابن النديم، الفهرست ص 231 .

⁵ حيث كان بليغاً فصيحاً .

⁶ ابن النديم، الفهرست ، ص 241 .

⁷ هبة الله بن جعفر ابن سناء الملك ، فصوص الفصول وعقود العقول ، د.م: مؤسسة المختار ، 2005م ص 301 .

⁸ ابن النديم، الفهرست ص 231 .

وقد أشار ابن النديم إلى مكانة علي بن عبيدة، وأحمد بن يوسف فالأول : أثنى على بلاغته وفصاحته وذكر له خمس وخمسين كتابا في مختلف الفنون ، والثاني : فقد جعله من بين البلغاء العشرة، وقد اشتهر بكتابة رسائل الخمسين¹،² .

وأشاد الفاضل بسهل بن هارون فجعله في قمة البلاغة فهو ملك خطباء العرب جاهليها وإسلاميها ومخضرمي دولتها .

ولكن لماذا توقف الفاضل عند كل من محمد بن الليث وسهل بن هارون ؟ ربما لفصاحتهما وشهرتهما فالأول من خلال رسالته التي كتبها عن الرشيد إلى قسطنطين يدعو فيها إلى الإسلام حاشدا كل الحجج والبراهين التي تدافع عن الإسلام ، واستمد فيها كثيرا من الحجج، مما يجادل به النصارى والمتكلمون ، ويشير فيها إلى النعمة والخير اللذين سيعمّانهم إن دخلوا في الإسلام³ .

ولسهل بن هارون رسالة يحتج فيها للبخل، وينصره على الكرم، وقد اعتمد فيها على الجدل والحجج التي دافع فيها عن البخل، وهي استمد فيها من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وعن حكماء أمته الفارسية⁴ .

وللفاضل رأي غريب بقوله عن الجاحظ : وإذا تأملت ما عملوا رأيت عقدا منظوما وإذا تأملت مع عمل الجاحظ هباء منثورا⁵ .

وهو أمر غريب حقا فقد خلاف الفاضل إجماع كثير من النقاد على تفرد الجاحظ وعبقريته ، فالجاحظ تأثر بسابقه ، ولكنه تفوق عليه وأبدع ، وقد يتفوق التلميذ على أستاذه ، وليس في الرسالة دليل واحد يستند الفاضل إليه في إطلاق رأيه ، فالجاحظ ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة فأسلوبه مليء بالنغم إذ يمتنع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تصغى إليه كما يمتنع بمضامينه العقول والأفئدة⁶.

² ابن النديم، الفهرست ص 286 .

³ شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول، مصر: دار المعارف، 1995م، ط 13 ص 478.

⁴ المصدر نفسه ، ص 538.

⁵ ابن سناء الملك فصوص الفصول ، ص 302 .

⁶ شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف ، ص 610.

ويختتم الفاضل رسالته بتأييده فيما ذهب إليه من تأثر أبي حيان التوحيد ، وابن العميد ، وأبي القاسم المغربي بالجاحظ¹.

2،1،3. المطلب الثاني: الآراء النقدية في النشر الحديث.

وهناك رسالة كتبها الفاضل ينقد فيها ابن سناء فكان قد كتبها جوابا عن رسالة لابن سناء يصف فيها رسالته يقول : فأما بلاغته فقد بلغت الغاية ، وأما قلمه فإنه به قد أعطى الراية، وقد تجاوز حد الكمال، فانصرف عينه وأوجب حرمة الأيام مقدا².

وتظهر في الرسالة غلبه النقد التأثري الانطباعي، والذي لا يستند فيه على أسس علمية نقدية ، فالنقاد القدامى لم ينكروا أهمية الذوق في عملية النقد؛ حيث يقول ابن الأثير : واعلم أيها لناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم³.

ولكن الذوق وحده لا يكفي بل لابد من الدربة والمران على ممارسة النقد؛ حيث يقول: فإن الدربة والمران أجدى عليك وأهدى بصرا وسمعا، وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول إمكانا⁴.

فالفاضل كان يصدر أحكامه معتمدا في ذلك على ذوقه الخاص متناسيا أمر الدربة والمرن والتي من خلالها تمكن الناقد من تقديم أدلته وتعليقاته النقدية .

ولقد كتب ابن سناء الملك بعض الموشحات بعض الموشحات في مدح القاضي الفاضل، واطلع الفاضل على هذه الموشحات وأبدى رأيه فيها ومن المعروف أن ابن سناء الملك اهتم بالموشح اهتماما كبيرا حتى ألف كتابا في هذا الفن سماه دار الطراز في عمل الموشحات، وقد صرح في مقدمة الكتاب بشغفه به في

¹ ابن سناء الملك فصوص الفصول ، ص 302 .

² المصدر نفسه ، ص 286.

³ ابن الأثير، المثل السائر، 1 / 17 .

⁴ المصدر نفسه ، 1 / 17 .

سن مبكرة ؛ حيث يقول : وكنت في طليعة العمر، وفي رجيل السن قد همت بها عشقا، وشغفت به حبا، وصاحببتها سماعا، وعاشرتها حفظا، وأحطت بها علما¹.

وقد حفظ كتاب فصوص الفصول ثلاث رسائل قصيرة أبدى فيه الفاضل رأيه في ثلاثة موشحات.

وسوف ننظر إلى رسالتين من الرسائل لنتبين آراء الفاضل النقدية في هذا الفن :

فالرسالة الأولى : فقد كتبها عن موشح مدح فيه ابن سناء الملك سماه الموشح الجلناري يقول فيه :

صرف كاسي جلناره وهي بالمرج بهاره

فأدرها واسقنيها في هوى من ريق فيها

من شراب الكأس أحلى ولهذا صار أغلى²

وقد علق الفاضل كعاداته بأحكام عامة ينقصها التعليل كالاتي : وقفت على موشح الجلناره وهو أحسن من الموشح الجلناري الذي كان زينة أعياد الخلفاء ، وأجدر منها بالنفاسة من القيمة والزيادة في البقاء³.

ويعلق الأهواني على كلام الفاضل فيرى أنه قد بالغ في مدح ابن سناء الملك؛ لأن الموشح كله لا يستحق المديح الذي أسبغه عليه القاضي الفاضل⁴.

ويقف الأهواني عند آخر فقرة من هذا المطلع فيقول : ولهذا صار أغلى فيقول : إنه أشبه بأقوال الفقهاء والمناطق منه بأقوال الشعراء⁵.

أما الرسالة الثانية فقد قالها عن موشح مدح فيه ابن سناء الفاضل ومطلعه :

في خديك من صير اللا شاب بالياسمين

¹ هبة الله بن جعفر ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل الموشحات ، بيروت: دار الفكر، 1980م ، ص 24 .

² ابن سناء الملك فصوص الفصول ، ص 292 .

³ ابن سناء الملك فصوص الفصول ، ص 194 .

⁴ المصدر ، نفسه، ص 194.

⁵ المصدر نفسه ، ص 194.

ودع ذا فيا حيرة الواش من ذا السحر المبين¹

وقد أعجب الفاضل بالموشح إعجابا شديدا؛ لأن ابن سناء جعل خرجة الموشح خرجة فارسية وهذا ما عجز عنه في نظر الفاضل السابقين يقول:

وتضمن الكتاب السعدي موشحا فارسيا خرجته عربية لهجته واضحة في تعجيز السابقين الأولين حجته².

وهناك خروج عما هو مألوف فيها، فقد وقع ابن سناء الملك في الخطأ حينما حاول أن يخالف الأندلسيين في شروطها التماسا للابتكار، فمن شروطها أن تكون عامية اللغة لا أعجمية ففهم ابن سناء الأعجمية أنها استخدام لغة عامية، وهذا خطأ في الفهم؛ لأن المقصود بالأعجمية في لغة أهل الأندلس العامية المتداولة في المجتمع الأندلسي³.

وعلى الرغم أنها أعجمية، فليس من حق أحد أن يغمط ابن سناء الملك حقه في عصره وفي ظروف لم يستطع غيره أن يصل في هذا الفن إلى ما وصل إليه وبالطبع لن تكون موشحاته في قوة الموشحات الأندلسية، ولا روعتها ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الفن عند ابن سناء الملك بعيدا عن غيره وجدنا روعة جرس وإيقاع ومهارة في تشكيل الألفاظ وتحويلها إلى ألفاظ خاصة⁴.

ومن نوافل القول إن أدب ابن سناء الملك قد جمع بين الجيد والرديء شأنه شأن أي أديب ولكن الفاضل كان يغض الطرف في نقده عن كثير من عيوب ابن سناء ويعمد إلى إبراز محاسنه فابن سناء كان تلميذا للفاضل يسترشد بآرائه ويعني بنقد كما كان يعينه أن يستجيد في شعره ونثره، فالفاضل كان زعيم مدرسة الكتاب في العصر الأيوبي، ومن هنا فإن ابن سناء الملك تأثر به تأثرا كبيرا.

2،3. المبحث الثاني: آراؤه النقدية في الشعر، ويتكون من مطلبين:

¹ ابن سناء الملك فصوص الفصول ، ص 260 .

² المصدر نفسه ، ص 260.

³ عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، العراق: دار الشؤون 1986م ، 185 ، 186.

⁴ ماجدة جمال الدين ، الموشحات في العصر الأيوبي، د.م: دار الطباعة النظامية، 1984، ص 174 .

1،2،3. المطلب الأول: آراء النقدية في الشعر القديم.

وتتحدث في المطلب عن آراء الفاضل في بعض الشعراء ونتائجهم الشعري ويلجأ إلى المفاضلة دائما بينهم وبين ابن سناء الملك ومن هؤلاء الشعراء البحري فهو يقارن بين قصيدة البحري ومطلعها :

أجذك ما تنفك يسري ازينبا خيال إذا آب الصباح تأوبا¹

وقصيدة ابن سناء الملك ومطلعها :

تذكرت أيام الصبا والصبا وعيشا مليحا بالمليحة معجبا²

حيث يقول وددت لو كان البحري حيا فكن نلسعه من تلك القصيدة بحية وكانت بائيته تغضه من بأوها وعجبها وتستتر من الأوراق في حجبها وكنا نعلم أن الزينبين الحلوب ؟ وأيهما أحق بملك القلوب ولا شك أن الغالبة هي زينب الغالب وهو صاحبنا والمغلوبة هي زينب المغلوب³ .

بل ويظهر الفاضل رأيه في أبو تمام والبحري مخالفا رأي ابن سناء الملك في تفضل البحري على أبي تمام فيقول : وقد تعصب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه وحطه وللبحري فأعطاه أكثر من حقه وما أنصفهما ولو كان هذا الموضع العتب لاشتفت قلوب ولكن للعتاب مواضع⁴ .

ويسجل الفاضل وابن سناء الملك آراءهما في شعر الرومي فالفاضل يسلم لابن الرومي شاعريته ويتعرض لقضية الجودة والرداءة في الشعر والتي لا يسلم منها شاعر سواء أكان قديما أو حديثا حيث يقول : فكان يبرز من الشعر محاسنه المغمورة ويلفظ أبياته الخراب ويبقى أبياته المعمورة⁵ .

أما ابن سناء فقد اعترف بعدم قدرته على الغوص في استخراج درر ابن الرومي فهي تحتاج إلى ناقد بصير وإلى جهيد خبير¹ .

¹ أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ، ديوان البحتري ، تحقيق: حسن كامل الصيوفي، القاهرة: دار المعارف ، 1/ 196.

² ديوان ابن سناء الملك ، تحقيق محمد إبراهيم نصر، القاهرة: وزارة الثقافة المصرية ، 1969 م، ص 538.

³ ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 365.

⁴ المصدر نفسه ، 265.

⁵ المصدر نفسه، 267.

ويبدو أن الفاضل كان يختار شعر غيره وقد أشار إلى ذلك ابن سناء بقوله : فأما ما أمر به المولى في شعر ابن الرومي فما المملوك من أهل اختياره ولا من الغواصين لأن بحاره زخاره وأسوده زاره² .

وسجل ابن سناء الملك رأيه في شعره ابن رشيق فجميع شعر ابن رشيق مسروق في رأيه إلا موضعين أو ثلاثة³ وهذه المواضع أثارت إعجاب ابن سناء وحيرته لفرط حسنهما حيث يقول : وقد حيرت المملوك استحسانا لها وتعجبا منها وأتعبته تفتيشا وتنقيبا عليها ولم يعرف من أين اختطفها وهنيئا له إن كان إن كان خاطره افترعها أو ذهنه اخترعها⁴ .

ويسجل القاضي رأيه في شعر ابن رشيق وهو لا يبتعد كثيرا عن ابن سناء الملك فالفاضل في تسجيل آراءه الخاصة بالشعراء كان يفاضل بينهم وبين تلميذه فيجعله في مقدمة السبق فهو أشعرهم جميعا حيث يقول : وقد تقدم أنه أشعر من كل من يختار شعره⁵ .

ويبدو للمتأمل في تفضيل الفاضل لشعر ابن سناء الملك على غيره من الشعراء يتجرد من أي مقياس نقدي وإنما يصدر حكمه عن إعجاب بشخصية ابن سناء ومجاملة له بعيدا عن أسس النقد التي استقرت في عصره .

المحور الثالث يدور حلو قضية كثير الحديث عنها وهي مشكلة السرقات الشعرية حيث يقول في تعليقه على قصيدة ابن سناء الرائية :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر⁶

إن ابن المعتز أغار على ذي الرمة في تشبيهاته⁷ .

¹ ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 256.

² المصدر نفسه ، ص 257.

³ المصدر نفسه ، ص 256.

⁴ المصدر نفسه ، ص 258 .

⁵ المصدر نفسه ، ص 256 .

⁶ المصدر نفسه ، ص 302.

⁷ المصدر نفسه ، ص 303.

والفاضل في هذا كله يصدر آراءه كالعادة دون الاستناد إلى دليل يدعم رأيه فيما يقول وإذا رحنا نفتش عن مفهوم السرقة بمعناها الواضح فهي أخذ جمل وأفكار أصيلة وانتحالها بنصها دون الإشارة إلى مأخذها¹.

وابن المعتز لم يسرق نصوصا دون الإشارة إليها فكل ما فعله هو توليده معاني جديدة من معاني قديمة وقد اعترف بذلك الفاضل يقول : قد اتكأ واتكل على ذي الرمة فأخذني في طريقه مستأنسا برفيقه فما ترك له تشبيها إلا نقله ووصفه واستعمله واستتر به وروجه وأخرجه وخرجه².

المحور الرابع فيدور حول فكرة التجديد والابتكار فابن سناء الملك في نظر الفاضل لا يغير على غيره من الشعراء لأنه ما أستأنس إلا بنفسه ولا أخرج إلا من كيس فكره³.

وقد وقف الفاضل على أبيات محددة وأشاد بها فجعل منها عيون القصائد يقول في تعليقه على القصيدة الرائية التي هنا بها ابن سناء عند عودته من دمشق ومطلعها :

ألا فانتبه وما رأيت أغرب من مطلع هذه القصيدة ولا أدل منها على شطارة طبعها ولا من بيت الكأس المكسورة وعلى أدل منه على صلابه طبع ولا من بيت الورق الخضر ولا أدل منه على رقة طبع وشدة نزع ولا له إلا مالك عنان الفضل في عصره وواحد كل دهره⁴.

أما بيت الكأس المكسورة الذي لفت انتباه الفاضل بما فيه من محسنات بديعية من مفارقة⁵.

وجناس بين كسر وسحر وكأس حيث يقول :

وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر⁶

¹ المصدر نفسه ، ص 304.

² محمد مصطفى هدارة ، مشكلة السرقات في النقد العربي ، المكتب الإسلامي ، 1999م ، ط2 ، ص 256.

³ ابن سناء الملك ، فصوص الفصول ، ص 255 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 255 .

⁵ المصدر نفسه ، ص 245.

⁶ محمد أحمد قاسم محيي الدين ديب ، علوم البلاغة ، طرابلس: المؤسسة الحديثة للكتاب ، ص 308 .

أما بيت الورق الأخضر الذي يدل على رقة طبع ابن سناء الملك فقد جاء فيه ما يسمى بحسن التعليل حيث يقول:

فلا تنكروا منها الخضاب فإنما هي الغصن في أطرافه الورق الأخضر¹

وهذا البيت مأخوذ من أبي صخر الهذلي وهو :

تكاد يدي تندى إذ ما لمستها وتنب في أطرافها الورق الأخضر²

فأين الابتكار الذي جاء به ابن سناء الملك وما هو مصدر إعجاب الفاضل به وقد علق الأهواني على الأبيات التي أعجب بها الفاضل فأرجع سر إعجابه بيت الكأس المكسورة إلى حسن التعليل وبيت الورق الأخضر إلى المفارقة كما يرى أن حسن التعليل والمفارقة رياضة وصنعة عقلية وهما أعلى مراحل التفكير العقلي في شعر ابن سناء الملك³.

وأعجب الفاضل ببعض مطالع القصائد فقد كان حسن المطالع وبراعة الاستلال يلفتان نظر الفاضل وكان يقف عند نادر المعاني في شعره⁴ يقول في تعليقه على البائية في شعر:

ألا أعجبوا من هجرها لحبيها ولا تعجبوا من لمي ومشبها⁵

يقول : وأما البائية فبيت طيبها وقد تعطر به كل فم يرويه وكل سمع يعيه وهو من غريب ما قيل في الشيب وما أحسب أحدا وقع عليه وهو بيت كله فضل وما فيه فضلة ويهون على الإنسان بيت إذا قال مثله⁶.

فالفاضل يرى ابن سناء مبتكرا لهذا المعنى في الشيب ولم يسبقه إليه أحد وغالى الفاضل مغالة كبيرة فقال الشعراء الذين تقدموا عليه أبدع المعاني وأغربها وكان لهم

¹ بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، دار ابن حزم ، 1997م ، ص 123.

² ديوان ابن سناء الملك ، تحقيق: محمد إبراهيم نصر ، ص 159.

³ أبو تمام حبيب ابن أوس الطائي ، ديوان الحماسة ، تحقيق عبد المنعم أحمد ، دار الرشيد ، 1980م ، 2 / 369.

⁴ عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ، ص 87.

⁵ محمد الصاوي الجويني ، ملامح الشخصية المصرية ، ص 267.

⁶ ديوان ابن سناء الملك ، تحقيق: محمد إبراهيم نصر ، ص 367 .

قصب السبق في هذا المضمار فأين البحري وما قاله في الشيب:

عيرتني المشيب وهي بدته في عذاري بالصد والاجتناب

لا تريه عارا فما هو بالشيب ولكنه جلاء الشباب

وبياض البازي أظلم أصدق حسنا إن تأمت من سواد الغراب¹

والناظر في دواوين الشعراء يجدوها مليئة بالكثير من المعاني الرائقة في الشيب²

2،2،3. المطلب الثاني: آراء النقدية في الشعر الحديث.

لقد وقفنا على الرسائل النقدية التي أرسلها الفاضل إلى ابن سناء الملك ومن هذه الرسائل النقدية رسالة سجل فيها رأيه في قصيدتين له:

فائية هنا بما صلاح الدين بإفاقته من مرض ألم به والثانية سينية مدح بها الملك الناصر وقد أوضح ابن سناء الملك الأسباب التي جعلت الفاضل يبدي آراءه في القصيدتين في رسالة واحدة :

فالقصيدة السينية فكنت قد مدحت بها الملك الناصر قبل هذه الفائية وأرسلتها إليه وكان بدمشق والملك والناصر رحمه الله بحران³ فأخر إنفاذها إليه لأجل المرض الذي كان فيه فلما عوفي كتبت إليه هذه الفائية وأشرت في كتابي إلى السينية وتأخرها بأن قلت :

إن تلك القصيدة صادفها زحل في الطريق⁴ وقد أشاد الفاضل بالفائية ومطلعها :

نظر الحبيب إلى من طرف خفي فأتى الشفاء لمدنف من مدنف⁵

¹ ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 266 .

² ديوان البحري، تحقيق حسن كامل ، 1 / 84.

³ مدينة تركية . ياقوت الحموي، معجم البلدان 2 / 235.

⁴ ابن سناء الملك ، فصوص الفصول ، ص 251.

⁵ المصدر نفسه ، ص 251.

فهو يرى هذه القصيدة فاقت كل قصيدة ويجعلها تتفوق على المعلقات حيث بقول : وقد علقت العرب أدون منها فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق فالمعلقات بعدها زادت على عدتها وفضلتها هذه بجودتها وجدتها¹ .

وصف شعر الواواء² بالضعف والركاكة دون أن يأتي بدليل واحد ليقنعنا بما ذهب إليه حيث يقول : ومن هو الواواء الركيك بل كل شعر مغلق على حروف المعجم عندها فافاء³ .

وفي رسالة نقدية للفاضل كتبها عندما أرسل إليه ابن سناء الملك قصيدة مطلعها :

لو واصلتني يوما لم أمت أبدا أو لم تصلني فيا موتي بها كمدا⁴

وقد أطلق الفاضل مرة أخرى أحكاما نقدية عامة أتكا فيها على ذوقه الخاص مع المبالغة في ذلك مبالغة مفرطة فهو يجعل القصيدة بليغة فريدة صارت للقصائد قصدا وللبلغاء طريقا وهي لا تحتاج إلى من يرويها وينقلها وإنما تدل على نفسها بإشراق شمسها كما أنه يجعل من الشاعر فريدا ليس له نظير وأنه لا يجارى في هذه الصناعة فيقول : ولو أنه له نظير لقلت : أنه واحد الجماعة ولو أن هذه الصناعة طلبه لقلت : أنه الآن على العصاة من عصبة شيخ الجماعة⁵ .

وهناك رسالة نقدية كتبها الفاضل عن قصيدة ابن سناء الملك هنا فيها الناصر بفتح القدس وكسر الفرنج ومطلعها :

لست أدري بأي فتح تنها يا منيل الإسلام ما قد تمنى⁶

¹ المصدر نفسه ، ص 249 .

² محمد بن أحمد الغساني الواواء الدمشقي ، ديوان الواواء الدمشقي . تح: سامي الدهان . بيروت: دار صادر ، 1993 م ؛ عبد الملك بن محمد الثعالبي، يتيمة الدهر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983 م 1/ 273.

³ ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 349.

⁴ ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 273.

⁵ المصدر نفسه ، ص 273 .

⁶ المصدر نفسه ، 274

والفاضل في نقده هذه القصيدة يطلق أحكاما تأثرية انطباعية غير معللة يقول : وما أقف على لفظه إلا أقول هذه وما بعدها فتأتي الأخرى غضبي عني وما أعرف لهذه المحاسن نظير ولا تسأل بها غيري خبير وهذه دواوين الفحول قد جبتها وهذه وجوه الأقوال قد أوردتها نار النقد فأكبتها¹ .

والثانية يسجل الفاضل رأيه في القصيدة البائية التي كتبها ابن سناء الملك إليه يهنئه بقدم مصر :

أتيت فجليت عنا المموم وجئت فرجت عنك الكروب²

وأنه ليجعل من تلميذه فحلا يفوق كل من سبقه من الشعراء على مر العصور فيقول: وبالجملة إن أهل هذه الصناعة وقفوا خلفا ووقف أماما وأنت السماء بهم دخانا وأنت به غماما³ .

وعلى الرغم من الأحكام العامة التي أطلقها الفاضل في نقد لشعر ابن سناء الملك فإننا نرى له بعض الوقفات الدقيقة تنم عن ذوق نقدي لأحد الأبيات في سينية ابن سناء وهو في الغزل وهو يقول :

صليبي وهذا الحسن باق فرما يعزل بيت الوجه منه ويكنس⁴

يقول الفاضل في نقده لهذه البيت : وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا⁵ . ويحبيه ابن سناء متعذرا عن هذا البيت فيقول : البيت الذي ذكر أنه أردا أن يكنسه منها هو في الغزل⁶ ويسوغ موقفه من هذا البيت بقوله : شغف بهذا البيت وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز في قصيدة المشهورة ومطلعها:

وقوامي مثل الفتاة من الخط وخدي من لحيتي مكنوس¹

ثم يعلق والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب فتتعرس عليه وتتعذر وما آمن المملوك به سدى ولا آنس ناره إلا لما وجد عليه هدى² .

¹المصدر نفسه ، 279

²المصدر نفسه ، 279

³المصدر نفسه ، 279 .

⁴ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 262.

⁵ابن سناء الملك، فصوص الفصول ، ص 262.

⁶المصدر السابق ، 262.

فأجاب الفاضل ابن سناء برسالة يقول فيها : ولا حجة للقاضي السعيد فيما احتج به عن الكنس في بيت ابن المعتز فإنه غير معصوم من الغلط ولا يقلد إلا في الصواب فقط³ .

وقد علق الأهواني على ذلك أن ابن المعتز كان في حالة الفكاهة والعبث على حين أن ابن سناء الملك يتحدث عن فتاة في مطلع مديح الملك وكان أولى بابن سناء الملك أن يعتذر بأنه استخدم لغة العامية واصطلاحاتها في الحديث عن البيت يعزل منه ساكنوه فيكنس في انتظار الساكن الجديد لأن هذه الصيغة تستخدم في العامية ولا ترد في المعاجم العربية وعلى أي حال فالبيت لا يدل من قريب أو بعيد على شاعرية أو صدق وإنما يدل على دفاع ابن سناء الملك عن عبوديته للشعر القديم⁴ .

وبرزت بعض الآراء النقدية للفاضل ففي حديثه عن ابن المعتز فإنه غير معصوم من الغلط ولا يقلد إلا في الصواب فقط⁵، وهذا دليل على أن الفاضل لا يحترم القديم لقدمه وإنما يجب الأخذ من القديم جيده وطرح رديئه.

الختامة

لقد طوفنا سويا حول البحث الموسوم ((القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني)) ، وعرفنا أننا أمام شخصية أدبية علمية بل وإدارية كان لها دور كبير في عصرها على المستوى العلمي والثقافي والسياسي والتاريخي، هذه الشخصية التي تمثل جهدا بارزا ومشاركة أدبية وفنية في عصرين من عصور الأدب العربي، ألا وهما الفاطمي والأيوبي؛ حيث عبرت تلك الشخصية عن ما يجول ويصوّل فيهما من عدة تجارب على المستوى الإنساني والسياسي والحضاري بل والاجتماعي، مغبرة بكل ذلك عن ملامح الإنسان العربي المسلم آنذاك، ووجدنا مدى ما تمتعت به هذه الشخصية العربية المسلمة من تكامل واتزان نفسي، بل وإيجابية اجتماعية نتج عنها الكثير من الصيغ المعبرة عن المجتمع والإنسان والزمان والمكان في صورة أبيات شعرية وكتابات ثرية تعددت أغراضها وموضوعاتها ؛ حيث عكست هذه الموضوعات المتنوعة، الإنسان العربي وسلوكه في حياته آنذاك، سواء علاقته بالمرأة بمختلف الصيغ الشعرية من غزل وفخر ومدح وعتاب وشكوى ووصف ، بل وعلاقته بالآخرين من حوله في المجتمع ، بمختلف أنواعها من حسد وحقد وحب وغيرها، معبرا عن الإنسان في شوقه واعتذاره في شكوى وبكائه، بل وتطرق إلى المدح حيث يمدح الآخرين لما فيهم من حسن أخلاق ومشاعر إنسانية جيدة، بل ويمدح نفسه واثقا من نفسه ومن أصله ومن فنه، ويعرج متكلمًا عن الحكمة وخاصة التحلي بالأخلاق الفاضلة، فوجدنا شاعرا ومفكرا وكاتبا ومتأملا ، فجاء نصه الشعري والنثري مثقل بمهوم الإنسان في عصره وملء برموز وتجارب وتاريخ مواقف مع عصره، سواء على مستوى البسطاء أو الحكام أو أصحاب الرسل، فأعطى لنا صورة عن الإنسان العربي المثقف والعالم والسياسي، الزاهد والورع، مشاركاً عصره بكل ما ألم به من محن وشجون، حتى صوره الفنية جاءت داعمة لمجتمعه بكل ما فيه من أمور الإنسان وتقلبه بين الفرح والحزن النصر والهزيمة، الحرية والعبودية ، فلكي تعبر عن كل ذلك تجاوزت القواعد اللغوية والبلاغية من تشبيهات واستعارات وكنائيات ، ومحسنات بدعية بأرقى الطرق وأنبّل المشاعر، الأمر الذي خرجنا منه بعدة نتائج ، بل وعدة مقترحات على هذا النحو:

أولا : النتائج:

- إن من يقرأ شعر القاضي الفاضل يحكم عليه بالإنسان صاحب العقل الذي يدور، في مدارات كونية لا حدود لها فهو الفيلسوف والشاعر والفنان والمفكر، الذي استطاع استكناه ما حوله من بعمق وواقعية وروية .

- إن كتابات الفاضل مسكونة بعموم الإنسان فردا وجماعة ومجتمعاً ومن هنا حمل النص الخاص بالقاضي الفاضل تاريخ الإنسان ورموزه وأساطيره وتجاريه وحكمته ومواقفه عبر عصور تاريخ الإنسان .

- ما كتبه القاضي الفاضل عكس شخصية الإنسان العربي المثقف والعالم بأمور حياته.

- كتابات القاضي كانت تمجوا الحساد والأعداء وأيضا الخطأ والسلوكيات السلبية.

ثانيا : المقترحات :

- علينا قراءة كل ما كتبه الفاضل من شعرا ونثرا قراءة جيدة لمعرفة المقدرة الثقافية والأدبية التي كان يتمتع بها الرجل.

- علينا معرفة الدور السياسي والتاريخي الذي قام به الرجل من أجل وطنه العربي.

- يجب أن تقوم الكثير من الدراسات لمعرفة الدور الثقافي للقاضي الفاضل.

- يجب إعطاء الكثير من الباحثين الفرصة من خلال الجوائز والمكافآت لبيان الدور الثقافي والعلمي لعلماء أمتنا .

المصادر والمراجع

1. إبراهيم، محمود، صدى الغزو الصليبي في شعر القيسري، د.م: المكتب الإسلامي، 1971 .
2. ابن الأثير الجزري، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد، رسائل ابن الأثير، تح: نوري القيسي وهلال ناجي، العراق: جامعة الموصل، د.ت
3. ابن الأثير، نصر الله بن محمد ، الوشي المرقوم ، القاهرة: شركة الأمل ، 2004م.
4. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، د.م: د.د، د.ت.
5. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم ناصر الدين، تاريخ ابن الفرات، بيروت: الجامعة الأمريكية، 1938م

6. ابن المعتز، عبد الله بن محمد، ديوان ابن المعتز، تح: محمد بديع شريف. مصر: دار المعارف 1977م.
7. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق، الفهرست، بيروت: دار المعرفة، 1997م.
8. ابن إلياس؛ محمد بن أحمد الحنفي، أبو البركات، بدائع الزهور ووقائع الدهور، د.م: مطابع الشعر، 1960م.
9. ابن إلياس؛ محمد بن أحمد الحنفي، أبو البركات، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.
10. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف بن عبد الله الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م.
11. ابن حجة الحموي، أبو بكر بن علي بن عبد الله الأزاري، خزانة الأدب ونهاية الأرب، بيروت: دار القاموس الحديث، د.ت.
12. ابن حجة الحموي، أبو بكر بن علي بن عبد الله الأزاري، خزانة الأدب ونهاية الأرب، بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت.
13. ابن حجة الحموي، أبو بكر بن محمد، ثمرات الأوراق، صححه: أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر: مكتبة الخانجي، 1971م.
14. ابن خلكان، أحمد بن محمد البرمكي الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، 1969م.
15. ابن رشيقي القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيقي القيرواني الأزدي (ت ٤٦٣ هـ)، العملة في محاسن الشعر وآدابه، بيروت: دار الجيل، 1981م.
16. ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر السعدي، ديوان ابن سناء الملك، تح: محمد إبراهيم نصر. القاهرة: وزارة الثقافة المصرية - دار الكاتب العربي، 1969م.
17. ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر، دار الطراز في عمل الموشحات، بيروت: دار الفكر، 1980م.
18. ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر، فصوص الفصول وعقود العقول، د.م: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2005م.
19. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب، د.م: دار ابن كثير، 1986م.
20. ابن عنين، محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي، ديوان ابن عنين. تح: مردم خليل. بيروت: دار صادر، 1959م.
21. ابن فضل الله العمري؛ أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. بيروت: دار الكتب العلمية، 2010م.
22. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، تح: عبد المنعم أحمد، د.م: دار الرشيد، 1980م.
23. أبو ديب، كمال، جدلية الخفاء، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م.
24. أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزبيق. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997م.
25. الأسعد، عمر، نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة، الأردن: مكتبة المنارة، 1988م.

26. الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد، *خريدة القصر وجريدة العصر*، تح: أحمد أمين وآخرون، القاهرة: د.د، 1951م .
27. الأصفهاني، عماد، *الفتح القسي في الفتح القدسي*، د.م: دار المنار، 2004م .
28. الأندلسي، جمال الدين محمد بن أحمد، *المعيار في نقد الأشعار*. مصر: مطبعة الأمانة، 1987م.
29. الأهواني، عبد العزيز، *ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار*، جروس برس: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986م .
30. باشا، عمر موسى، *الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك*، دمشق: المكتبة العباسية، 1973م .
31. البحري، الوليد بن عبّيد، *ديوان البحري*، تح: حسن كامل الصيوفي. القاهرة: دار المعارف، د.ت.
32. بدوي، أحمد، *الحياة الأدبية*، د.م: دار نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979 .
33. بدوي، أحمد، *الحياة العقلية في عصور الحروب الصليبية بمصر والشام*، القاهرة: دار نخضة مصر، د.ت.
34. بدوي، أحمد، *الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم*، د.م: دار نخضة مصر للطباعة والنشر، 2016م.
35. بدوي، أحمد، *القاضي الفاضل، دراسة ونماذج*، د.م: مكتبة نخضة مصر، 1959م.
36. بروكلمان، كارل، *تاريخ الأدب العربي*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م .
37. البغدادى، عبد القادر بن عمر، *خزانة الأدب ولب لباب*، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997م.
38. الثعالبي، عبد الملك بن محمد، *يتيمة الدهر*، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م .
39. الجاحظ؛ عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني، *البيان والتبيين*، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1423 هـ .
40. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، *دلائل الإعجاز*، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.
41. جمال الدين، ماجدة، *الموشحات في العصر الأيوبي*، د.م: دار الطباعة النظامية، 1984.
42. جواد، غانم، *الرسائل الأدبية*، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
43. الجويني، محمد الصاوي، *ملاحم الشخصية المصرية*، القاهرة: الهيئة المصرية للنشر، 1970م .
44. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، *المستدرک على الصحيحين*، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991م .
45. حسين، محمد كامل، *دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين*، د.م: دار الفكر العربي، 1957م.
46. حمزة، عبد اللطيف، *الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م .
47. حمزة، عبد اللطيف، *الحركة الفكرية في مصر في العصرين المملوكي والأيوبي الأول*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1970م .
48. الحموي ياقوت، معجم البلدان، بيروت: دار إحياء التراث، 1979م.
49. حور، محمد إبراهيم، *الحنين إلى الوطن العربي حتى نهاية العصر الأموي*، دبي: دار القلم، 1989م.
50. الخضر: عبد الحسنيين، *الشعراء الأيوبيون*. دمشق: مطبعة عكرمة، 1993م .
51. الدباغ، مصطفى مراد، *موسوعة بلادنا فلسطين*، د.م: دار الهدى، 2002م.
52. الدولات، خالد سليمان عيد، *شعر القاضي الفاضل دراسة نصية*، رسالة دكتوراه، الأردن، 2005 .
53. الزركلي، خير الدين الدمشقي، *الأعلام*، بيروت: دار العلم للملايين، 1997م

54. الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة، د.ت.
55. الزيات، أحمد حسن، باب الأدب المصري، مجلة الرسالة، العدد، 217 .
56. الساريسي، عمر عبد الرحمن، نصوص من أدب الحروب الصليبية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1984م.
57. سبط ابن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي، مرآة الزمان، دمشق: دار الرسالة العالمية، 2012م.
58. السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، د.م: فيصل عيسى البابي الحلبي، 1964م .
59. السرطاوي، محمود، نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، عمان، دار البشير، 1990م .
60. سلام، محمد زغلول ، الأدب في العصر الفاطمي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1993م .
61. سبيويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988.
62. سيمينوف، تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتح: حسن بيومي، د.م: المجلس الأعلى للثقافة ، 2001م .
63. شكيل، هادية دجاني، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990م .
64. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة: دار المعارف، 1974م .
65. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة: دار المعارف، 1977م .
66. شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات، القاهرة: دار المعارف ، 1990م .
67. الصفدي، خليل بن أبيك بن عبد الله، الوافي بالوفيات، دمشق: المطبعة الهاشمية، 1981م .
68. ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، القاهرة: دار المعارف، 1995م.
69. ضيف، شوقي، فصول في الشعر والنقد، القاهرة: دار المعارف، 1998م.
70. طبانة، بدوي، معجم البلاغة العربية، بيروت: دار ابن حزم، 1997م.
71. عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عمان: دار الشروق، 1993م.
72. عبد الرحمن عفيف، ظاهرة التشاؤم في الشعر، الرياض: دار العلوم، 1983م .
73. عبد الفتاح، ماهر، القاضي الفاضل أديبا، رسالة ماجستير.
74. عبد المهدي، عبد الجليل ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، عمان، دار البشير، 1995م.
75. العريني، السيد الباز، الشرق الأدنى في العصور الوسطى،، بيروت، دار النهضة العربية، 1967.
76. عطا الله، محمد عبد الرحمن عطا الله ، رسائل القاضي الفاضل، دراسة تحليلية ، طنطا: دار الحضارة، 2000م .
77. الفاضل، القاضي، الرسائل الأدبية، مخطوط.
78. فالح، محمود محسن، عشائر شمالي الأردن، عمان: دار عمار ، 1990م.
79. فروخ، عمر، الأدب العربي في المشرق، دار العلم، بيروت، د.ت.
80. قاسم، محمد أحمد، علوم البلاغة ، طرابلس: المؤسسة الحديثة للكتاب، د.ت.
81. القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي البيساني، ديوان القاضي الفاضل. تح: أحمد أحمد بدوي. القاهرة: دار المعرفة، 1961م .

82. قرطاجني، حازم بن محمد بن حسن، أبو الحسن، منهاج البلغاء ، د.م: دار الكتب الشرقية، 1966م.
83. قصبجي، عصام ، سوسن لباييدي، مجلة بحوث جامعة حلب، سلسلة الآداب، عدد 36 ، 1999م.
84. القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي، صبح الأعشى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995م.
85. قليقة، عبد العزيز، النقد الأدبي في العصر الأيوبي، القاهرة: دار الفكر العربي، 1991م.
86. كيلاني، محمد سيد، الحروب الصليبية وأثرها في الأدبي العربي في مصر والشام، القاهرة: نخبة مصر، 1949م.
87. المتني، أبو الطيب أحمد بن حسين الكوفي، ديوان المتنبي. بيروت: دار المعرفة، 2006م .
88. محمد نجيب، تاريخ الشعر العربي ، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1950.
89. المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، د.م: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002م.
90. المومني، قاسم، شعرية الشعر، عمان: منشورات وزارة الثقافة، 2002م.
91. النبھاني، يوسف بن إسماعيل، مفرج الكروب، د.م: دار الكتب العربية، 2008م .
92. نعش، محمد، رسائل عن الحرب والسلام، د.م: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1978.
93. النعيمي، عبد القادر بن محمد ، المدارس في تاريخ المدارس، بيروت: دار الكتب العلمية ، 1991.
94. هدارة، محمد مصطفى، مشكلة السرقات في النقد العربي، د.م: المكتب الإسلامي، 1999م.
95. هوتسما وأرنولد وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، الإمارات: مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998.
96. الوأواء الدمشقي، محمد بن أحمد الغساني، ديوان الوأواء الدمشقي. تح: سامي الدهان. بيروت: دار صادر ، 1993م .
97. ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م

KİŞİSEL BİLGİLER

ORCID	
Adı Soyadı	AbdulqaderHameedNeamah AL-JANABI
Doğum Yeri	
Doğum Tarihi	

LİSANS EĞİTİM BİLGİLERİ

Üniversite	Anbar Üniversitesi
Fakülte	Eğitim Fakültesi
Bölüm	Edebiyat

YÜKSEK LİSANS EĞİTİMİ

Üniversite	Üniversite Çankırı
Enstitü	Sosyal Bilimler Enstitüsü
Anabilim Dalı	Temel İslam Bilimleri